-4-

من يعرف الإسلام
بعد الحادي عشر من سبتمبر ولماذا؟

بعد بضعة أيام من عودتنا من بالي في منتصف شهر نيسان / أبريل 2006، وفي أعقاب رحلة طويلة ومشوشة ومربكة عبر المحيط الهادي والولايات المتحدة قبل الوصول إلى واشنطن، سافرت في رحلة أخرى. فقد دعاني مجلس الشؤون الدولية في فيلادلفيا إلى حضور مؤتمر دولي كبير عن الإسلام والغرب – وشمل المتحدثون عينة من نخبة الشخصيات الأمريكية الرفيعة والنافذة : ديك تشيني، هنري كيسنجر، برنارد لويس، جو بيدن (الابن)، فرانسيس فوكوياما – إضافة إلى الاحتفال بالذكرى التسعين لمولد أستاذ التاريخ الشهير في جامعة برينستون برنارد لويس[1]. وبسبب مكانة وأهمية المشاركين، شددت الإجراءات الأمنية في الفندق الذي عقد فيه المؤتمر فضلا على الحي المجاور في فيلادلفيا حيث طوقه رجال الأمن المجهزون بالبنادق والكلاب البوليسية، في حين أحاطت سيارات الشرطة بالمكان، وهذا ما أوجد جوا بالغ التوتر لا يرتبط عادة مع المؤتمرات العلمية. والأمر غير الاعتيادي الآخر قلة عدد المتحدثين من المسلمين (ايان هيرسي علي التي كانت حاضرة أعلنت منذ زمن طويل ردتها).

بدا واضحا من النقاط المفتاحية في حديث تشيني ومن ملاحظات كيسنجر أن تفكير كل منهما بالعالم الإسلامي على مر السنين – ومن ثم تفكير إدارة بوش – قد تأثر تأثرا عميقا ببرنارد لويس. وحين سئل كيسنجر عن أهم خطوة مفردة سوف يتخذها لتحسين العلاقات بالعالم الإسلامي، أجاب: "سأذهب أولا إلى برنارد لويس"، ثم ركز على إيران. فتوجيه ضربة نووية إلى إيران أمر محتم كما يعتقد، وعلى الغرب محاولة منعها من تطوير أسلحة نووية والتحول إلى تهديد عالمي. وإذا كان استخدام الأسلحة النووية ضد إيران أمرا حتميا، و"علينا أن نفعل ذلك في وقت ما"، كما أضاف، فلم لا نوقف إيران عند حدها الآن؟ ولأن أعدادا كبيرة من الناس سوف يقتلون والعواقب ستستمر سنوات

طويلـة، يجب اتخاذ القـرار بترو وحرص وحـذر. لكن كيسنجر كان واثقـا من أن القوى الدوليـة سوف تتحرك بسرعة وتضمن عودة الأمور إلى طبيعتها. ومثلما هو معروف على نطاق واسع، ما تزال آراء كيسنجر تمارس بعض التأثير على البيت الأبيض[2].

تحدثـت بعد كيسنجر، وطالبـت الولايات المتحدة بالتعلم مـن التاريخ القريب وعدم تكـرار أخطائهـا، مشيرا إلى الفوضى التـي تتفاقم الآن في العـراق وأفغانستان. فنتيجة تدخـل الولايـات المتحـدة في هذين البلديـن أبعد ما تكون عـن الوضوح. فمـا بالك إذن بإيـران، وهي بلـد أكبر من العـراق وأفغانستان وأقـل فقرا، ويمتد مجـال نفوذها كأمة شيعيـة بارزة امتدادا كبيرا؟ من المهم إدراك أن الهجوم على إيران سوف يطلق ردة فعل إسلاميـة جماعية: ولـن ينحصر الغضب العارم في رد الشيعـة المنتشرين في شتى أنحاء العـالم فقط، بغض النظر عن رأيهم بمحمد أحمدي نجاد، بل سيمتد ليشمل العديد من المسلمـين غيرهم. وسـوف تتعرض الأنظمة العربيـة الممالئة للغـرب لضغط كبير بحيث يهـدد وجودها. وما يثير القدر نفسه من القلق أن السكان الشيعة في باكستان - وعددهم يقدر بثلاثين مليونا - سوف يحتجون مطالبين باستخدام ترسانة باكستان النووية لدعم الجـارة المسلمة التـي يؤيدونها ويقدرونها ويقفون معها حين تشـن عليها الحرب. وأكدت أن الوقـت قـد أزف لتذكر أن الولايـات المتحدة تدافع عن قيم وممارسـة حقوق الإنسان والحريـات المدنية والديمقراطيـة الحقيقية ويجب ألا تتخلى عن هـذه القيموإن تلطخت بالفضائـح في أبو غريـب وغوانتانامو. وحـذرت الأمريكيين من أن الولايـات المتحدة إذا تابعت هذا المسار، فإنهم لن يجدوا الكثير من الأصدقاء أو الحلفاء في العالم.

وللعـودة إلى سؤالي السابق عن كيفية تحسـين العلاقات بالعالم الإسلامي، اعتمدت علـى تجاربي الأخـيرة هناك، ملاحظـا أن الشابات والشبان الأمريكيـين الذين سافروا معـي جسـدوا مثالا مهما لكيفية بناء الجسور عبر كسب قلـوب وعقول المسلمين، بدلا من إثـارة مقاومتهم وتحريض معارضتهم. لكـن مثل هذه الاستراتيجية لا يمكن أن تنجح إلا إذا توقف الأمريكيون عن النظر إلى العالم الإسلامي بوصفه كتلة صلدة واحدة، واتخذوا خطـوات باتجـاه بناء الجسور وإجـراء الحوار. وأشـرت إلى أن العـالم الإسلامي متخم بالغضـب والمشاعر المعاديـة لأمريكا، والعراق مثـال صارخ على فشـل أمريكا الذريع في

ترويـج قيمها المتعلقة بحقوق الإنسـان والديمقراطية. وبرأيي، تحتاج السياسة الأمريكية إلى التركيـز بجديـة أكبر على كسب القلـوب والعقول واستثمار طاقـة وموارد جديدة في العـالم الإسلامي. وهـي بحاجة إلى بعث تلك الأفـكار التي جعلت الولايـات المتحدة أمة عظيمة في المقام الأول، وإعادة اكتشافها لنفسها ولباقي العالم أيضا.

مـع أن كلماتـي أحدثـت في البداية رعدة في القاعـة خصوصا فكـرة أن مسلما من بين جميـع النـاس يقدم مثل هذه النصيحة الصادقة والمنطقيـة، إلا أن الجو بدأ يتحسن مع رد الحاضرين على ما قلته. بدا كيسنجر متيقظا ومتحفزا حين تحدثت ولم يبعد عينيه الثاقبتين عني. كان الحاضرون من الشخصيات العارفة والذكية لكنهم بحاجة إلى النظر إلى الجانب الآخر من الصورة. وبالتدريج بدؤوا يتلقون رسالتي، بل وافق العديد منهم عليها.

برأيـي، أظهر المؤتمر الذي امتد يوما واحدا الحدود والقيود والمعضلات والتناقضات في محاولـة تحديد وتعريـف الإسلام في الولايات المتحدة. من الحـدود المقيدة الخطرة، كمـا ذكـرت آنفا، أن لاعبين سياسيين مهمين، مثل تشينـي وكيسنجر، اعترفا بحقيقة أن السياسـة الأمريكيـة تجاه الإسلام تأثـرت طوال السنوات الثلاثـين الأخيرة بأفكار رجل واحـد، هو برنارد لويس. فضـلا على ذلك، لم تبذل المنتديات السياسية التي ركزت فعلا علـى العالم الإسلامي أي جهد يذكـر لأخذ المنظور الإسلامي بعـين الاعتبار أو الاعتماد علـى الأعمال الميدانية المهمة لعلماء الاجتماع للتوصـل إلى تقويماتهم. ونتيجة لذلك، لم يكتف الأمريكيـون بقراءة العالم الإسلامي قراءة خاطئة فقط، بل عجزوا عن التخطيط للأحداث التي تتكشف بسرعة كبيرة فيه. في هذا المؤتمر أيضا لم تظهر على السطح كلمات مثـل "حوار" أو "فهـم"، أو "تعاطف" أو "تراحم". أما الأشد إربـاكا فهو أن المتحدثين، رغـم تميزهم وشهرتهم، فشلـوا في فتح عيونهم لرؤية النتائـج المنطقية المستخلصة من حججهـم: الولايات المتحـدة تدفع العالم نحـو الكارثة المدمرة مباشـرة. هذا الاحتمال، المرعب لكل مهتم بالسلام، أوجد شعورا بالتشاؤم سيطر على المناقشات.

أدركـت أن مجـال تحديد وتعريـف الإسلام أصبـح واحدا من أكثر المجـالات أهمية وإثـارة للنزاع والخلاف في الحيـاة العامة. فتعريفه بطريقة معينـة، لها مضامين سلبية مثـلا، سـوف يثير استياء عامـة الناس ويولد ردة فعـل سلبية تجاه الديـن. ومن ثم، إذا

استعملت كلمة "فاشية" - المذمومة عموما لارتباطها مع هتلر والنازية - بالمدلول ذاته لكلمة إسلام، فإن الناس العاديين في الغرب سوف يُجهَّزون لاعتبار الإسلام تهديدا داهما لأسلوبهم في الحياة، ويقبلون فكرة المعركة النهائية الحاسمة، مهما تطلبت من وقت، لاستئصال الشر وإبادة الأشرار.

نحتت مثل هذه التعابير في الحقيقة لوصف الإرهابيين المسلمين - وآخرها "الفاشست المسلمون" وهي تلهب غضب المسلمين لأنها بالضبط تلطخ سمعة الدين برمته. ومثلما أشار الزعماء المسلمون، لم ينسب أحد أعمال الإرهاب التي ارتكبها المسيحيون واليهود لـ"للفاشست المسيحيـ " أو "الفاشست اليهود". وعلى الرغم من احتجاجات المسلمين، استخدمت الكلمة على نطاق واسع، واستعملها حتى الرئيس بوش. لم يعد تعريف الإسلام مسألة صراع مع قضايا تهم الخاصة من العلماء كتلك المتعلقة بطبيعة الله والآخرة، بل مسألة مسيسة على نحو يثير القلق وبطريقة تلقي ظلالها على أتباع الدين في شتى أنحاء العالم. ويمكن أن تتأثر المهنة السياسية والمسعى الفكري والمصداقية الإيديولوجية - لا للمسلمين وحسب - بأسلوب تعريف الإسلام. ومن الواضح أن من الجوهري تعريف وتحديد وتصنيف ديانة المسلمين بصورة دقيقة. وما يعادل ذلك في الأهمية تحديد أولئك الذين يعرفون ويحددون الإسلام، خصوصا الذين يقودون الحرب العالمية على الإرهاب بعد الحادي عشر من سبتمبر.

فرسان الظلام المنذرون بالعولمة

اهتم بعض الأمريكيين بالصلات الوثيقة بين المؤسسة العسكرية والشركات والسياسيين ووسائل الإعلام في أمريكا، المعروفة باسم المجمع العسكري – الصناعي، والفوائد المتبادلة بينها[3]. وهم يخشون من أن الولايات المتحدة ربما تدفع العالم باتجاه حرب لا نهاية لها من أجل مصلحة نخبة قليلة. وبعد الحادي عشر من سبتمبر لم يصلوا تماما بين النقاط في حججهم أو اقتفاء أثرها حتى الإسلام. ولسوف أحاول فعل ذلك في هذا الفصل.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عملت هذه الشبكة مثل آلة "مزيّتة" بطريقة جيدة، حيث توسع تأثيرها ونفوذها وقوتها بسرعة. في الحرب الراهنة في العراق، تبدو

الصـلات جليـة لا لبس فيها: كان ديك تشيني رئيسا لشركـة "هاليبرتون اويل"، وزوجته عضوا في مجلس إدارة "لوكهيد مارتن"، أكبر شركة منتجة للمعدات والأسلحة للمؤسسة العسكريـة. في حـين ترأس دونالد رمسفيلد وبـول ولفوويتز علـى وزارة الدفاع، وكان كل منهمـا شريكا تجاريـا قديما ومستشارا وزميـلا لديك تشيني. كسبـت هاليبرتون فوائد مباشـرة من غزو العراق، وأنتجت لوكهيـد مارتن التي لا تستطيع البقاء دون عقود وزارة الدفـاع، جميع الأسلحة المتطورة التي يستخدمها الجيش الأمريكي تقريبا، ومنها حرب النجوم أو منظومة الصواريخ الدفاعية المصممة لشن الحرب من الفضاء. وردت الشركة الجميل بأحسن منه حين تبرعت بسخاء للحملات الانتخابية للسياسيين المفضلين لديها، مثـل ديك تشيني. وبعد الحـرب على العراق، سارعت هاليبرتون إلى إعادة إعمار العراق بأسعـار مرتفعة على دافع الضرائب الأمريكي عبر عقود فازت بها دون مناقصات. الكل ربـح في الشبكـة. لكن يتعذر على الآلـة العمل بفاعلية إلا في وجود عـدو مقنع. ومن ثم لا تصبح الحرب العالمية ضرورية فقط، بل علة وجود المشروع برمته.

حتى خلال حرب الخليج الأولى في عهد إدارة بوش الأب، أدت الصلات بين الشركات الكـبرى والمناصـب الحكومية الرفيعـة إلى منافع متبادلة. ففي ذلـك الوقت، نشط وزير الدفـاع ديك تشيني في ربط الشركات الكبرى مع أصحاب المناصب الإدارية العليا، مثلما يشير تشارلي بارتليت أحد المطلعين على ما يجري في واشنطن:

سياسـة تفويض المهمـات العسكرية إلى جهـات أخرى بدأها ديـك تشيني حين كان وزيـرا للدفاع عـام 1990. فقد منح شركة هاليبرتون (التـي رأسها لاحقا) عقدا بقيمة مليـوني دولار لدراسة تستقصـي جدوى هذه السياسة. وبعـد أن استنتجت الدراسة أنها فكـرة جيدة، أعطى تشينـي الشركة عقدا دون مناقصة، لتولي عـدد من الخدمات التي كانـت تؤديها المؤسسة العسكرية في الماضي. الرأي العام بحاجة إلى أن يعرف الكثير عن أداء هاليبرتون في العقود التي منحت لها منذ أن أصبح تشيني نائبا للرئيس. نحن بحاجة إلى معرفة المزيد عن عمل الكثير من المقاولين في العراق[4].

ظـل الاتحـاد السوفييتي العـدو المقنع طوال معظـم القرن العشريـن في نظر غالبية الأمريكيـين، فهـو "إمبراطوريـة الشـر" علـى حـد تعبـير رونالـد ريغـان. واستخدمت

الحكومة الأمريكية، مدعومة بتأييد الأمريكيين عن طيب خاطر، جميع الموارد والطاقات لمنـع إمبراطورية الشر من غزو واستعباد الولايات المتحدة. ومع انحطاط وانهيار الاتحاد السوفييتي في أواخـر الثمانينيات، فقدت البنى الإيديولوجية والمادية الأمريكية الضخمة والمسؤولة عن دماره، فقدت توازنها. ولذلك وجب تحديد عدو عالمي جديد.

في أعقـاب الانهيـار السوفييتـي، لم تتحول المجتمعـات في العـالم إلى ديمقراطيات ليبراليـة تركز على حقوق الإنسان والحريات المدنية كمـا أمل بعض المراقبين في الغرب. فكثـيرا ما كانت مقاومة هذه القيم الغربية عنيفة وضارية، لا في البلدان الإسلامية فقط بـل في شتـى أنحاء العالم أيضا. وتبدت معارضة هذه القيم في الصين، التي اتهمها بعض الغربيين بقمع الحريـات، وفي "الدول المارقة" مثل كوبا وكوريا الشمالية وسورية وإيران. أما أعنف مقاومة قبل الحادي عشر من سبتمبر فقد أتت من أسامة بن لان، حين هاجم السفارتـين الأمريكيتـين في إفريقيا عـام 1998، والمدمرة "كول" عـام 2000، في حين تباهـت "القاعدة" منذرة بوقوع مزيد من الهجمـات، حتى على التراب الأمريكي. وهنا، ظهر سبب جديد للعداء. فـ"الشر" ما زال متربصا في أركان العالم المظلمة.

قـدم المحاربون الذين خاضوا الحرب الباردة وهزموا للتو الاتحاد السوفييتي الحجة علـى أن هذا التهديد حقيقي وداهم، وأن الولايات المتحدة بحاجة إلى الحفاظ على تفوق قواهـا العسكريـة في سبيل الدفاع عـن نفسها وعن زعامتها العالمية. أمـا أقوى الدعوات إلى ذلـك فأتت من مجموعة من المفكرين الذين أطلـق عليهم اسم "المحافظين الجدد" وبـرزوا خـلال ولايـة ريغان، لكـن همشـوا في ولايتـي بوش الأب وكلينتـون. وعلى وجه العمـوم، يعتقد "المحافظون الجدد" أن على الولايات المتحدة عدم الخشية من استخدام قوتهـا التـي لا تضاهـى لترويج قيمها في العـالم. وأيد بعضهـم علنا إقامـة إمبراطورية أمريكيـة. ويؤمـن المحافظون الجـدد أن التهديدات التي تواجه الولايـات المتحدة لم يعد بالإمكان احتواؤها بطريقة موثوقة يعتمد عليها، ولذلك يجب منعها، عبر العمل العسكري الاستباقي في بعض الأحيان[5].

وفي سبيل إقنـاع الأمريكيين بمزاعمهم، أقام المحافظون الجدد مؤسسات استشارية وفرت الدليل على التهديدات – خصوصا من عراق صدام حسين – وروجوا لإيديولوجيتهم

عـن طريق الكتب والمقـالات وظهورهم في وسائل الإعلام. شارك كبار المسؤولين في إدارة بوش الحالية – بول ولفوويتـز، وكوندوليزا رايـس، وريتشارد بـيرل، ودونالد رمسفيلد، وجـون بولتون، وديك تشيني – في هذه المؤسسات الاستشارية بطريقة أو بأخرى. من هذه المؤسسـات والمعاهد، "مشـروع القرن الأمريكي الجديد" الـذي أسسه تشيني ورمسفيلد وولفوويتـز عام 1997، وقـدم الحجة في وثيقة تنبئ بالآتي بعنـوان "إعادة بناء دفاعات أمريكا" (2000)، على أن الولايات المتحدة بحاجة إلى "التحرك بجرأة وجسارة بدرجة أكـ " نحو تحقيق أهداف المحافظـين الجدد، لكن العملية ستكـون طويلة، "دون اعتبار بعضـ الأحداث الكارثية والمحفزة" مثل "بـيرل هاربر جديدة". تشير هذه الكلمات، كما يعتقـد منتقدو الوثيقـة، إلى أن المآسي والكوارث ستكون محـل ترحيب لأنها تعطي زخما جديـدا لنظـرة المحافظين الجدد إلى العـالم وبنياتها الداعمـة. وفي الحقيقة، بدا وكأن الحادي عشر من سبتمبر قد جسد مثل هذا الحدث المأساوي المطلوب.

في نظـر العديد من المحافظين الجـدد، ومنهم المتخصصـ في الاقتصاد السياسي، فرانسيس فوكوياما، تعد الديمقراطية الليبراليـة الأمريكية المرحلة النهائية في الارتقاء السياسـي البشري، الذي تمظهـر تفوقه في هزيمة الاتحاد السوفييتـي. فهذه كما يعتقد "نهايـة التاريخ"[6]. ويعتقد العديد من المحافظين الجـدد أيضا أن لدى كل إنسان رغبة في العيش في مجتمـع حر، ولو منح المضطهدون الذين يعيشـون في ظل أنظمة ديكتاتورية الفرصـة للتخلص من مضطهديهـم وتأسيس نظـام ديمقراطي، لما تأخـروا أو ترددوا. وبـرأي العديـد من المحافظين الجدد فـإن الديمقراطية هي "الحالـة الافتراضية" التي ستعتنقهـا المجتمعـات كلها في نهاية المطـاف. وقدم سقوط جدار برلـين وانهيار الاتحاد السوفييتـي باستمـرار كمثال لهذه الحقيقـة الواقعية والموضوعية المدركـة. فكرة التقدم هـذه بوصفها النهاية المرغوبـة للمجتمعات المتطورة على مر السنـين تعد جزءا لا يتجزأ مـن الفكر الفلسفي الغربـي ويمكن عموما رؤيتها في أعمال مفكريـن أوروبيين من أمثال هيغـل وداروين وماركس. وتجد التعبـير عنها أيضـا في "مهمة التحضـ " التي تولتها الإمبراطورية البريطانية[7].

حـين نظـر الأمريكيـون إلى عالم ما بعـد الحرب البـاردة في التسعينيـات وشاهدوا الشموليـة الاستبداديـة "الشريرة" تهزم مـرة أخرى، تبادلوا التهـاني والتبريكات. لقد

انتصرت قوى الحرية والديمقراطية الأمريكية وسادت العالم كله، باستثناء "الدول المارقة"، التي يجب إجبارها في النهاية على فتح مجتمعاتها والانضمام إلى النظام العالمي الخاضع للهيمنة الغربية. أما المؤسسات الواقعة تحت السيطرة الغربية والأمريكية، مثل منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، فقد انتشرت في معظم أرجاء العالم، وطالبت بلدانه بفتح أسواقها وتشجيع التجارة الحرة، وهذا سيؤدي أيضا إلى الديمقراطية. وفي الحقيقة فإن القوة التي أشار إليها فوكوياما بوصفها حركة باتجاه "نهاية التاريخ" هي العولمة دون شك. وسوف تتزيا أطروحة فوكوياما بلبوس جيد في كتابي توماس فريدمان "سيارة الليكزس وشجرة الزيتون" و"العالم مسطح"[8].

عندما ألح المحافظون الجدد على توكيد حجتهم لمصلحة تفوق وسيادة الديمقراطية والتحضير لغزو العراق، عملوا بتأييد من الشخصيات السياسية والمفكرين والصحفيين من ذوي الآراء المشابهة، على مساواة المتطرفين الإسلاميين بالتهديد الذي مثله النازيون في أربعينيات القرن العشرين. فبرأيهم، كانت الحرب العالمية الثانية مبررة أخلاقيا وأدت إلى انتصار شامل على قوى الشر. قال ولفوويتز، الذي يرأس الآن البنك الدولي إن "الشيء الذي لم يتغير لسوء الحظ هو أن الشر ما زال موجودا في العالم، على شكل توتاليتارية فاشية لا تختلف جوهريا عن تلك التي ظهرت في القرن الماضي – وليست أكثر ورعا (من النازيين والشيوعيين)"[9]. وجرت مقارنة القرآن بكتاب "كفاحي" لهتلر (وأشهر من قام بذلك بيل اوريلي في برنامجه التلفزيوني). حتى الاقتراحات المعتدلة والخجولة بإجراء حوار مع المسلمين رفضت واستبعدت بوصفها وسيلة لـ"التهدئة"، تشابه ما فعله تشامبرلين رئيس وزراء بريطانيا السابق مع هتلر. وصور قادة المسلمين – ومنهم أسامة بن لادن وصدام حسين ومحمود أحمدي نجاد – بوصفهم تجسيدات تقمصت روح هتلر. ثم بدأ المحافظون الجدد في إبهام الفارق المميز بين المتطرفين الإسلاميين والدين الإسلامي عبر استخدام تعابير مثل "الفاشية الإسلامية".

برأي بيل كريستول، رئيس "مشروع القرن الأمريكي الجديد" وأحد أبرز المعبرين عن تفكير المحافظين الجدد، انبعث التهديد الإسلامي الفاشي من إيران، حيث أطل برأسه أول مرة عام 1979 وبقي خطرا داهما منذ ذلك الحين. مجلة "ويكلي ستاندارد"

التـي يرأس تحريرها، نشـرت مقالة ناقش فيها أمثلة تاريخية أخـرى على إيديولوجيات توتاليتارية شريرة سيطرت على الحكم في بلد وسعت إلى تصديرها: "أصبحت الشيوعية خطرة فعلا حين استولت على روسيا. وغدت الاشتراكية القومية خطرة حقا حين استولت على ألمانيا. وتحولت الإسلاموية إلى خطر داهم حين استولت على إيران - التي أصبحت منذ ذلك الوقت جمهورية إيران الإسلامية"[10]. في المقالة نفسها، اقترح أن تنتهز إدارة بوش فرصة هجوم إسرائيل على حزب الله في صيف عام 2006 لقصف إيران.

قـدم المحافظون الجدد الحجة علـى أن عواقب وتبعات الهزيمة على أيدي الفاشست الإسلاميـين ستكـون كارثيـة على الغرب لأنهـم لن يكتفـوا بالسعي إلى فرض الشريعة الإسلاميـة وإقامـة الخلافة فقـط، بل ربما يريـدون تدمير وإفناء المجتمـع المتحضر في الغـرب. أما ريتشارد بـيرل، أحد المحافظين الجدد البارزيـن والنافذين، فقد شارك في تأليـف كتيب عنوانـه الجانبي "كيف نربح الحرب على الإرهاب"، قدم له كما يلي: "فيما يتعلق بنا، يبقى الإرهاب أخطر الشرور في عصرنا، والحرب على هذا الشر أعظم قضية لأفراد جيلنا.. لا يوجد سبيل وسط للأمريكيين: أما النصر أو المحرقة"[11].

المعنـى الضمنـي لتشبيـه الإسـلام بالنازية أقنـع الأمريكيين بأن تجربـة سنوات ما بعـد الحادي عشـر من سبتمبر تشابه حقبة الحرب الباردة التـي أعقبت الحرب العالمية الثانيـة. ولذلك، من المنتظـر أن يقدم الأمريكيون العاديون التضحيـات للسماح للإدارة بحمايـة أسلوبهم الحياتـي وحريتهم. أما نجاح هذه الحجة فيفسـر ردة الفعل الصامتة على حالات التعذيب التي تعرض لها المسلمون بعيد الحادي عشر من سبتمبر بقليل وتبني "قانـون الوطنيـة"، الـذي يعتقد المسلمون أنـه يستهدفهم. وفي مواجهـة تهديد أمثال هتلـر، اعتقد الأمريكيون أن على الرئيـس فعل ما هو ضروري لحماية المواطنين. الرئيس بوش رجل أفعال (لا نظريات) وبحاجـة إلى إيديولوجية، في حين كان المحافظون الجدد مفكريـن ومنظريـن يبحثون عن زعيم يترجـم أفكارهم إلى سياسـة. فعثر كل طرف في الآخر على ضالته المنشودة.

تختلـف حرب هذه الأيام على الإرهاب اختلافا بينا عن الحرب الباردة، على الرغم من حجج المحافظين الجدد، لكنها ترى للأسف من المنظور نفسه. في عام 1947، مثلما

حـدث في عـام 2001، كان على صناع السياسـة الأمريكية التصـدي لتهديدات جديدة تدهـم الولايات المتحـدة ورسم مسار جديد للسياسة الخارجية. ومـع أن صناع السياسة أدركـوا أن الشيوعيـة ستكـون التهديد التـالي الذي يواجـه أمريكا بعد الحـرب العالمية الثانيـة، ووجب عليهم تقرير كيفية مجابهته، إلا أن هذا الرأي كان محل خلاف وناقشت وزارة الخارجيـة السبل التي يجـب اتباعها، ملاحظة أن الشيوعيـة كانت تستغل ظروف الفقر واليأس الموجودة قبلا في أوروبا. وتمثل هدف الحكومة الأمريكية في "عدم الاكتفاء بمحاربـة الشيوعية فقط، بـل تصحيح الوضع الاقتصادي الذي يجعـل المجتمع الأوروبي عرضـة للاستغلال من أي حركـة توتاليتارية"[12]. كان ذلك جـزءا من تبرير "مشروع مارشال"، لكن سياسة معالجة جذور الأسباب الداعية للشيوعية لم تدم طويلا.

في نيسان/ أبريل 1950، قدم بول نيتز، مدير تخطيط السياسة في وزارة الخارجية، وثيقـة جديدة إلى الرئيس هاري ترومـان (وثيقة مجلس الأمن القومي رقم 68)، وكانت علـى قدر مـن التأثير والنفوذ بحيـث ظلت تحكـم السياسة الخارجيـة وذهنية المجتمع الأمريكـي حتى سقـوط الاتحاد السوفييتي بعـد أربعة عقود من الزمـن. في هذا التقويم للتهديـد السوفييتي، لم تعـد الفلسفة السابقـة القائمة على تطوير وتنميـة بلدان العالم لوقـف انتشار الشيوعية على جدول الأعمال. وبدلا من ذلـك، أصبح السوفييت معتدين، وحـذرت الوثيقة من مخططهم لفرض إيديولوجيـة شريرة على باقي العالم، وتلك مهمة قائمـة على الترهيب والتخويف بسبب قـوة ترسانة أسلحتهم الذريـة. التهديد غدا الآن موجها لحرية أمريكا، جوهر أسلوب الحياة الأمريكية:

خلافـا للطامحـين السابقـين إلى الهيمنة، أنعش الاتحاد السوفييتـي دينٌ متعصب جديـد، مناقض لمبادئنـا، ويسعى لفرض سلطته المطلقة على بقيـة العالم.. ومع التطوير المطـرد لأسلحة دمار شامـل مروعة، فإن كل فـرد يواجه الاحتمال القائـم دوما بالفناء والدمار إذا دخل الصراع مرحلة الحرب الشاملة.. القضايا التي تواجهنا بالغة الخطورة، لا تشمل تدمير هذه الجمهورية فقط بل الحضارة ذاتها[13].

علـى الأمريكيـين أن يحشدوا قواهـم إلى أبعد حد لهزيمة هـذا "الدين المتعصب"، الـذي مثل التوتاليتارية، والاستعباد، والإلحـاد – أي نقيض القيم الأمريكية القائمة على الحرية والتحرر والإيمان بالله[14].

وجب على صناع السياسة الأمريكيين اختيار بديل مشابه بعد الحادي عشر من سبتمبر. فهل كان عليهم فعل ما اقترحته وزارة الخارجية عام 1947 بمعالجة جذور الأسباب الداعية للإرهاب، والسعي لتحقيق السلام في الشرق الأوسط، وإطلاق "مشروع مارشال" جديد للعالم الإسلامي؟ لو فعلوا ذلك لساعدوا - على سبيل المثال - في إصلاح حال المدارس الدينية، المهتمة بإنتاج الشباب المسلمين المتعصبين المستعدين للموت في الحرب الجهادية. إضافة إلى تغيير المناهج وتحسين برامج تدريب المدرسين لتغيير ذهنية أجيال المستقبل، وترويج الديمقراطية الحقيقية، ومن ثم تخفيف التوترات الضاغطة في البلدان الإسلامية حيث يشعر الناس بأنهم محاصرون في إسار أنظمة حكم غير منتخبة وفاسدة وعاجزة في العادة.

بدلا من ذلك كله، اختارت الولايات المتحدة العودة إلى ذهنية الحرب الباردة ومقاومة التوتاليتارية. فسياسة الولايات المتحدة التي وضعها "مبدأ بوش" تشدد على أن "استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية" في الحرب على الإرهاب العالمي قائمة على القتال في سبيل القيم الديمقراطية وأسلوب الحياة الأساسي. فالحرية والإرهاب في حرب ضروس، ويجب أن يكون الإنفاق الحربي بلا حدود أو قيود لهزيمته[15]. فأعداؤنا، كما قال ولفوويتز، قوم "يعبدون الموت لا الحياة.. يعبدون الشيطانكما أرىلا الرحمن.. وهم أشرار يجب مجابهتهم"[16]. وحين دعا الرئيس بوش وإدارته خبراء مختصين بالإسلام لتقديم رؤية لأفضل استراتيجية لمقاربة العالم الإسلامي، اعتمدا على أشخاص مثل برنارد لويس، الذي يعتبره دارسو وعلماء الإسلام نموذجا مجسدا لـ"للمستشرق" لأنه، على شاكلة المستشرقين الآخرين، ينزع إلى تطبيق القوالب النمطية السلبية والعتيقة التي تجاوزها الزمن للمسلمين، ومن ثم يسيء تفسير العالم الإسلامي[17]. ولذلك اشتبه المسلمون بل اعتقدوا وصرحوا بوجود روابط تجمع برنارد لويس - وغيره من المستشرقين بواسطته - والسياسة الخارجية الأمريكية[18].

ينسب إلى برنارد لويس - مثلا - مفهوم "صدام الحضارات"، الذي استعاره منه صمويل هنتنغتون المتخصص في العلوم السياسية ومؤلف الكتاب الشهير عالميا "صراع الحضارات". علق أحد المراقبين بالقول: "مقدمة لويس الأساسية التي عرضها في سلسلة

من المقالات والأحاديث والكتب الرائجة، هي أن الغرب – أو ما كان يسمى بالعالم المسيحي – هـو الآن في المراحـل الأخيرة من قرون من الصراع على الهيمنـة والمكانة والاعتبار مع الحضـارة الإسلامية"[19]. ومع أن المفهوم مزعـزع ومتهافت ويسهل دحضه ونقضه، إلا أنـه أثار اهتماما كبيرا. فالفكرة التي يبرزها عن صدام إيديولوجي وتاريخي مستمر بين الغرب والعالم الإسلامي ناسبت تماما ذهنية إدارة بوش. وعلى الرغم من أن أفكار لويس عنصرية واستعلائية وعتيقة تجاوزها الزمن، إلا أنها أصبحت الآن الركيزة المقبولة التي لا يمكـن دحضها للسياسة الخارجية الأمريكية، وعرفتها صحيفة "وول ستريت جورنال" بأنها "مبدأ لويس"[20].

بلغ تأثر ديك تشيني – أقوى رجل في الإدارة الأمريكية بعد الرئيس الذي يدير جهازه وآلية عمله كما يقال – ببرنارد لويس حد الاستشهاد به على شاشة التلفزيون قبيل الحرب على العراق[21]. فقد أورد فكرة لويس القائلة إن المسلمين لا يستجيبون إلا للقوة، ومن ثم فهم بحاجة لمعاملتهم بالشدة والصرامة. كان يقول باختصار، إذا أظهرت للمسلمين من هـو السيد المطاع فسوف يحترمونك. وبالانسجام مع هذا النمط من التفكير، برر تشيني الإجراءات المتطرفة في الحرب على الإرهاب، ومنها التعذيب. الموقف المؤسس على أفكار برنارد لويس الذي استرشدت به عملية تخطيط الحرب على الإرهاب أثر أيضا في تفكير مسؤولين آخرين في واشنطن وصاغ وجهة نظرهم عن المسلمين.

أدت السياسات الخاطئـة والمفاهيم المغلوطة في واشنطن إلى سقوط عشرات الآلاف مـن القتلـى والجرحى في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وهذا ما عجل بدوره في حدوث مزيـد من أعمـال العنف وسفـك الدماء، فضلا علـى تفاقم غضب المسلمـين. ومن ثم، لم يجـد أولئـك المطالبون بالمجابهـة العنيفة مع الغرب صعوبة كبـيرة في تجنيد الأنصار والمؤيدين. وعلى الجانب الأمريكي، استمرت وسائل الإعلام في إظهار صور الحادي عشر مـن سبتمبر و"غضب" المسلمين بغرض التهييج والإثـارة. في حين خدم خطاب المسلمين المطالـب بالرد والانتقام، المغلف بغلـو الثقافة، هدف إقناع الأمريكيـين بأن أمنهم الذي يحرصون عليه معرض للخطر. ونجح المحافظون الجدد أيضا في إقناع الأمريكيين بأنهم مثلما حاربوا دفاعا عن "العالم المتحضر" – في الحربين العالميتين – عليهم القتال لكسب

الحـرب على الإرهاب وحدهم: "نحن نحارب نيابـة عن العالم المتحضر. ولن نتوقف عن الأمـل بدعم العالم المتحضر. لكـن إذا لم نحصل عليه، وهذا احتمـال ممكن، فعلينا أن نقـول كما قال ذلك الجندي البريطاني الباسل في الرسم الشهير لديفيد لو عام 1940: حسن إذن، سأقاتل وحدي"[22].

كان غـزو أفغانستـان عام 2002 حربا غـير متكافئة على أقل تقديـر: نظرا للفارق الهائـل في القوة العسكرية بين الطرفـين: أحدهما أعظم قوة علـى الأرض، والآخر دولة آسيويـة فقيرة وصغيرة سكانها جائعون وأصابتها أضرار جسيمة بعد سنوات من مقاومة الاتحاد السوفييتي. لكن وسائل الإعلام الأمريكية، التي كانت قوة إضافية في الحرب على الإرهـاب (باستثناء صحفيين يستحقون الاحترام مثـل سيمور هيرش)، أعطت انطباعا مفـاده أن العـالم الإسلامي كتلـة صلدة لا متمايـزة يخوض حربا جهاديـة مجنونة على الغـرب. لكن الحالة لم تكـن كذلك. فالعالم الإسلامي تقسمه القوميـة والاثنية والأفكار المتعلقـة بالإسـلام، مثلمـا رأينا في النمـاذج الثلاثـة الموصوفة في هذا الكتـاب. وأولئك الأمريكيون الراغبون في تبرير الطبيعة الوحشية للحرب على الإرهاب وجدوا مادة كافية لذلـك في الغضب والخطـاب المغالي في تطرفه لبعض المسلمين، وفي النمـاذج المجسدة لسلوكهم العنيف، مثل قطع رأس داني بيرل.

مـن جانبها، نصبـت الإدارة الأمريكية شبكـة من المسلمين "الموالـ " لها وعينتهم في مناصـب مهمة خدمة لمصالحها: زلماي خليل زاد، الـذي عمل مستشارا لشركة النفط "يونوكال"، هو السفير الحالي للولايات المتحدة في الأمم المتحدة، وكان قد أرسل أولا إلى أفغانستـان ثـم إلى العراق؛ وحامد كـرزاي، الذي عمل سابقا في "يونـوكال" أيضا، هـو الرئيس الحالي لأفغانستان. فضـلا على ذلك، عين مشرف شوكت عزيز، الذي عمل سابقا في "سيتي بانك"، رئيسا لوزراء باكستان.

لم يمضـ وقـت طويل على شن الحرب علـى الإرهاب، حتى بـدأت الواجهة الشهيرة لاستعلاء واستكبار المحافظين الجدد وزهوهم الفكري تظهر علامات التشقق والتداعي. إذ رأى فوكوياما، أحد أبـرز المفكرين المشاركين في "مشروع القـرن الأمريكي الجديد" منـذ انطلاقتـه عام 1997 وأغزرهم إنتاجـا، الأحداث المتكشفة بعـد الحادي عشر من

سبتمبر، وسرعان ما عبر عن سخطه على فكرة المحافظين الجدد برمتها[23]. وبعد أن أعلن نهاية التاريخ قبل بضع سنوات، أعلن الآن موت المحافظين الجدد[24].

لكن هذه الشكوك لم تؤثر في تفكير وسياسات الإدارة. ففي كانون الثاني / يناير 2007، أعلن بوش أنه سيرسل 21500 جندي إضافي إلى العراق لإيجاد "اندفاعة" في النشاط الحربي على حد تعبيره. ومع أن 65% من الأمريكيين عارضوا إرسال مزيد من الجنود، إلا أن بوش، بتحفيز من تشيني، لم يرتدع. وبخلال ساعات من الإعلان، هاجم الجنود الأمريكيون في العراق البعثة الديبلوماسية الإيرانية في اربيل (عاصمة المنطقة الكردية ذات الاستقلال الذاتي)، واعتقلوا خمسة ديبلوماسيين. غضب الإيرانيون وأكدوا أن الأمريكيين انتهكوا الحصانة الديبلوماسية، في حين اتهمت الحكومة الأمريكية المعتقلين الإيرانيين بممارسة نشاطات معادية لكنها لم تقدم أي دليل يثبت مزاعمها. في الوقت ذاته، أرسلت الولايات المتحدة حاملات الطائرات إلى الخليج العربي، وتصاعد التوتر في المنطقة بصورة درامية. وتساءل المعلقون في وسائل الإعلام الأمريكية في ذهول، بعد أن أخذوا بعين الاعتبار الوضع المروع في العراق، هل أصبحت الحرب مع إيران أمرا محتوما ومحسوما. وهكذا، يقرع المحافظون الجدد طبول الحرب مرة أخرى بحماس وتلذذ.

عند استرجاع أحداث الماضي، تبدو خشية الباحثين والمفكرين المسلمين الأمريكيين بعد الحادي عشر من سبتمبر من أن المحافظين الجدد سيدفعون الولايات المتحدة إلى مواجهة "مصطنعة ومفبركة" مع سورية وإيران، تبدو في محلها[25]. لقد أدى سوء فهم المحافظين الجدد للإسلام، ومن ثم مقاربتهم التي تعاني شروخا وعيوبا قاتلة لمسألة العلاقات الأمريكية بالعالم الإسلامي، إلى أخطاء جسيمة ارتكبتها السياسة الخارجية الأمريكية وسببت عزلة الولايات المتحدة على المسرح العالمي. والآن، يواجه جيش مجهز بأحدث الأسلحة الحربية وأنظمة الاتصالات المتطورة تقانيا في التاريخ وضعا عسكريا مستحيلا في العراق. ويبدو أن امتناع المحافظين الجدد عن الاعتراف بأخطائهم وخطاياهم يؤكد سمعتهم القائمة على العناد والتعالي والاستكبار. ولم يفت على الناس عدم إظهارهم أي تعاطف مع القتلى والدمار (دون داع) نتيجة استراتيجياتهم. ولم

يكـن من المفاجـئ أن يعدهم المنتقدون داخل الولايات المتحـدة وخارجها فرسان الظلام المنذرين بالعولمة.

كيف تعرف وسائل الإعلام الغربية الإسلام

مثلمـا أشـارت المناقشة المذكورة آنفـا، أصبح الإسلام بحلول عـام 2006 "فزاعة" ترعـب الشعـب الأمريكي. وبغض النظر عن ارتيابهـم وتوجسهم، فشـل الأمريكيون في تحـدي حجج البيت الأبيض لمصلحة استخـدام أساليب التعذيب أو التجسس الداخلي في الحرب على الإرهاب، لأنهم أرادوا البقاء آمنين ومحصنين من الإرهابيين. قامت وسائل الإعـلام بدور مهـم في إقناعهم بتصديق نظـرة ديك تشيني إلى العـالم. في حين أثارت أعصـاب الجميـع التحذيرات مـن الأعمال الإرهابيـة التي تبث على مـدار الساعة على شاشات التلفزيون، وألـوان التهديدات: "الأحمر" للمستوى المرتفع و"الأصفر" للمعتدل. ومن اللافت أن التهديد لم يصل إلى مستوى اللون "الأخضر" أبدا.

التقارير التي تتحدث عن المخططـات المجهضة والمحاولات الإرهابية المحبطة لتسلل المسلمـين الماكرين والمفسدين إلى الغرب، غذت وسائل الإعلام وأبقت أعصاب الناس في حالـة من التوتر والتساؤل: متى وأين ستحـدث الضربة الإرهابية التالية. صحيح أن هذه التهديـدات يجب عدم تجاهلها، لكنها ضخمت لتبدو أكثر ترهيبا من الواقع. فالتفاصيل مبهمـة والحقائق يصعـب توكيدهـا لأن الإدارة غير راغبة في كشفهـا. ولذلك بدأ بعض منتقـدي الحرب على الإرهاب بوضـع مصداقيتها موضع التشكيك والمساءلة. على سبيل المثـال، شكك كريغ موراي، السفـير البريطاني السابق في اوزبكستان وأحد منتقدي توني بلـير ودعمه الأعمى لسياسـات بوش، بالمؤامرة المزعومة التي خطـط لها أربعة وعشرون بريطانيا من أصل باكستاني لتفجير عشر طائرات فوق المحيط الأطلسي في آب/ أغسطس 2006. وأشار في عدد من المقابلات مع وسائل الإعلام إلى أن العديد من المتهمين ليست لديهم جوازات سفر، ولا بطاقات سفر، ولم يحصلوا على أي تدريب لمثل هذه العملية التي تتطلب دقة بالغة. وأكد مسؤولو الاستخبارات الباكستانية أن المتهمين "هواة" ولا يمكن أن يمثلـوا تهديدا حقيقيا. وعلى الرغم من هذه الحقائق، فإن أولئك الذين وضعوا المسلمين في قالـب التهديـد المنمط تعاملوا مع القصة بوصفها محاولـة عنيدة أخرى من المسلمين لإلحاق الضرر والأذى بالغرب.

ووفقـا لتقارير انتشرت على نطاق واسع، تلقـت وسائل الإعلام أيضا الدعم والتأييد مـن الإدارة لترويـج إيديولوجية المحافظين الجدد بأسلـوب جسور وجرئ واقتحامي عبر المحطـات التلفزيونيـة، مثـل "فوكس نيـوز"، بعروضهـا الإخبارية المثـيرة، ومساهميها اليمينيـين المتطرفين المثيرين للجدل، وما تملكه مـن محطات إذاعية وصحف ومجلات. واختـارت وسائل الإعلام تقديم أخبار الإرهابيين بطريقة حماسية مثيرة للعواطف، وهي تعلـم أن العديد من الأمريكيـين يصدقون ما يرونه ويسمعونه كحقيقـة لا تقبل النقاش. وكثـيرا ما قـام المعلقون في محطـة "فوكس نيـوز" بتصويـر التهديد القـادم من العالم الإسلامي بأنه خطر داهم يمكن أن يدمر فجأة "الحضارة الغربية كما نعرفها". وأنتجت المحطـة أيضا مسلسلا باذخا وشعبيا بعنـوان "24"، أثار عواطف المشاهدين وغضبهم علـى الإرهابيين مـن جميع الجنسيـات والأعراق. وأظهـرت الحلقـات الأولى السلطات الأمريكيـة وهي تحـارب الإرهابيين المسلمـين الذين صوروا كمهاجريـن عاديين يعيشون وسـط الأمريكيين وبين ظهرانيهم، وبذلك أشـارت ضمنا إلى أن التهديد حاضر دوما في كل زمـان ومـكان. في عام 2005، أظهـرت إحدى الحلقات المسلمين وهـم يستولون على منشـأة نووية في الولايات المتحدة وتسببوا في تدميرها. وقام أحد زعماء الإرهابيين بقتل زوجتـه وإطلاق النار على ابنه لأنـه خشي من أن يعيقا تنفيذ المهمة - بعد اختطاف وزير الدفـاع ومحاولة قطع رأسه في مشهد حي على الإنترنـت! عم الغضب المسلمين واحتجت جماعات تمثيلية عديدة.

لكـن الفكـرة المطلوبة قدمت علـى أية حال وعـززت المدركات السلبيـة السائدة عن المسلمين بوصفهم يمثلون تهديدا دائما وعنيفا. وتضخم حجم التهديد في وسائل الإعلام وارتفـع مستوى الخوف إلى حد قبـول الأمريكيين الضمني برفع جميـع القيود عن أفعال وتصرفات الحكومة من أجل منع هجوم وشيك آخر، وهذا ما سمح بتنفيذ سياسة التشدد وعـدم التسامح، بغض النظر هل تجسدت في التنصت على الأحاديث الهاتفية دون إذن، أو في قانـون الوطنية المثير للجدل، أو في تعذيب المشتبه في ضلوعهم في الإرهاب. تشارلز كروثامر، وهو صحفي آخر من المحافظين الجدد، اقترح أن تتبنى الولايات المتحدة أيضا سياسـات استخدام التعذيب إذا ساعدت في استخلاص المعلومات من الأسرى والسجناء "الإسلاميين"[26].

إذن، صور التيار الغالب من وسائل الإعلام تهديد "الإسلاموية" وفق تفكير وآراء برنارد لويس -بوصفها إيديولوجية منتشرة في العالم الإسلامي وتهدف إلى إحياء الخلافة لكي تحدق بالعالم وتطوقه. وكان الصحافي والمؤرخ دانييل بايبس (من المحافظين الجدد) قد حذر من أخطار "الإسلاميين" مشددا على أنهم موجودون في كل مكان منذ الحادي عشر من سبتمبر: "قد يبدو الإسلاميون أشخاصا عاديين ومنطقيين وملتزمين القانون، لكنهم في الحقيقة جزء من حركة توتاليتارية، ولذلك، يجب اعتبارهم كلهم من القتلة المحتملين"[27]. وأطلق بايبس برنامجا دعاه "مراقبة الحرم الجامعي" بغرض رصد المدرسين الذين ينشرون ويبثون المشاعر المعادية لأمريكا أو المبادئ الإسلامية. وقال بايبس: "ما نحتاج إلى أن نفعله هو أن نكشر عن أنيابنا لا أن نبتسم بلطف. ما نحتاج إليه هو أن ننشر الخوف لا الحب. لا يمكنك أن تنشر الخوف والحب في آن، لذلك يجب أن تختار أحدهما"[28]. استدعت مثل هذه الملاحظات مديح كروثامر الذي دعا بايبس بـ"النبي" لأنه فهم أن "الإسلام المتطرف هو المشكلة والإسلام المعتدل هو الحل"[29]. ومع دلالات الشر الضمنية المحيطة بها الآن، بدت "الإسلاموية" وكأنها النقيض الكامل لما تمثله الولايات المتحدة وتدافع عنه. وأخذت المواجهة بينهما طبيعة الصراع الكوني بين التحرر والعدالة والديمقراطية والحرية من جهة، والتطرف والإرهاب والعنف من جهة أخرى. الحجة ساوت ضمنيا بين العالم الإسلامي برمته وهذه المفاهيم السلبية وشيدت صورة لكتلة صلدة غير متمايزة ومرعبة للإسلام في أذهان وعقول الأمريكيين، الذين ربما لم يكونوا رأيا من قبل عن التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية. ولذلك بدؤوا، دون أن يدركوا كيف ظهرت هذه "البنية"، بربط كلمة "إسلام" مع الإرهاب والعدو. لقد جعلت هذه المشاعر العدائية فكرة الحوار والديبلوماسية غير ذات صلة. وكما قال بايبس: "انتهى موسم الفهم"[30].

مع نقل فكرة التهديد الدائم داخل وخارج الولايات المتحدة بطريقة مقنعة إلى عامة الأمريكيين، وجد الذين روجوها عدوا محددا ومعرفا يمكن تبرير شن حرب عالمية مفتوحة النهاية عليه. فقد عُد المسلمون، بغض النظر هل يتبعون نموذج أجمر أم ديوباند أم عليكره، مشتبها فيهم ومستعدين مقدما للعنف. لكن عرّف هذا العدو

وحـدد بوصفه "الإسلام" بأسلـوب مفكك وغير منطقي وغير دقيـق إلى حد الفضيحة، بالـترادف مـع خرافة الإسلام بوصفه عقيدة يتأصل فيها العنـف التي تعود جذورها إلى أوروبا القروسطية. اجتزأت مقاطع من القرآن من سياقها لدعم هذه الحجة وتم تجاهل الطبيعة الحقيقية للإسلام. ولم يتطرق أحد أبدا إلى حقيقة أن المسلمين يشيرون كل يوم إلى ربهم بوصفه "الرحمن" و"الرحيم"، أو إلى الآية القرآنية التي تؤكد أن: "لا إكراه في الدين" (البقرة: 256)، وأن من أهم صفات النبي - كما ذكر القرآن ذاته - أنه "رحمة للعالمـ ". وأن الحربفي الإسلاملا تشن إلا في حالـة الدفاع عن النفس والأمة، ولا يجوز أن تكون عدوانية. إن مبادئ الحرب التي عمل أبو بكر أول خليفة في الإسلام على قوننتها، تحـرم قتل رجـال الدين والنساء والأطفـال من أي ديانة وملة، وتحظـر قطع الأشجار أو تخريب المحاصيل أو النبات.

سارت في ركاب السياسة الأمريكية التي تساوي بين الإسلام والإرهاب والشر، وسائل الإعـلام التي أصبحت متشربة بالفكرة إلى درجة أن شريحة كبيرة من عامة الأمريكيين يؤمنون الآن أن الإسلام دين شرير وتتأصل فيه عيوب ونواقص خطرة بحيث يصفح عن العنـف. ولم يتوقـف سوى قلة قليلة للتأمـل واكتشاف أن أعـدادا لا تحصى من الضحايا سقطوا نتيجـة الهجمات الإرهابية التي شنها غير المسلمين مـن المسيحيين واليهود: مثل الهجمات الدموية التي نفذها الجيش الجمهوري الأيرلندي في بريطانيا، ومذبحة مسجد الخليـل عام 1994، حين قتـل باروخ غولدشتاين 29 وجرح 150 مـن المصلين الأبرياء. حتى أتباع الديانات "المسالمة" تقليديا، مثل البوذيين والهندوس، قصفوا وقتلوا الأبرياء. إذ قتـل نمـور التاميل (الهندوس) مثـلا الآلاف في سريلانكا، ومنهـم رؤساء حكومات ورؤسـاء. ونادرا مـا جرت مساواة هذه الأعمـال مع ديانات مرتكبيها، مـع أنها مناقضة للمبادئ المركزية للتراحم والحكمة فيها.

السـؤال الـذي طرح مرارا مع نوع مـن السخط في أغلب الأحيـان منذ الحادي عشر مـن سبتمبر هو: "من يتحدث باسم الإسلام ويمثلـه؟". خارج دائرة البيانات والعبارات الملتهبـة للمعلقين في وسائل الإعلام، بلغ الاهتمـام بمعرفة طبيعة الإسلام مستويات غير مسبوقـة، لكـن لسوء الحظ لم تتمكن سـوى قلة قليلة من دراسة الإسـلام بدرجة كافية،

ولم يطلب إلا من عدد قليل من المسلمين المشاركة في النقاشات، وهذا ما ضاعف حالة الارتباك والتشوش المحيطة بالموضوع. لا يمكن أن أتخيل مناقشة تتناول الديانة اليهودية تجريها لجنة أو هيئة مكونة من المسيحيين والمسلمين فقط، أو مناقشة الدين المسيحي من هيئة مكونة من اليهود والهندوس وحسب. لكن هكذا بالضبط يناقش الإسلام، فيلحق الضرر بالمسلمين ويثير حنقهم ويملؤهم الإحباط وخيبة الأمل.

في هذه الأثناء، غاب علماء المسلمين عن النظر، واكتفوا بمشاهدة ما يصيب دينهم وتراثهم من أذى وتشويه وتحريف بواسطة سلسلة من الآراء التي لا يملكون السيطرة عليها. العديد منهم ردوا على الهجمات على الإسلام بالكتابة في الصحف والمجلات الإسلامية ودافعوا عن قضية الإسلام بوصفه دين السلام. وبدوا في حالة من العجز واليأس واتخذوا موقفا دفاعيا ولم يتمكنوا من التحدث مباشرة أمام المنتديات الأمريكية. ومنعوا أحيانا من الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، ومن هؤلاء طارق رمضان الذي يحمل الجنسية السويسرية (من أحفاد حسن البنا)، ويوسف إسلام البريطاني (المعروف باسم كات ستيفنز وكان مغنيا مشهورا قبل أن يعتنق الإسلام). المعلقون الغربيون يجدون أفكار رمضان وإسلام غريبة ومثيرة للجدل، مع أنهما كانا من النماذج التي يحتذى مثالها في الاستبيان الذي وزعناه في مشروعنا البحثي. وهم يعدون رمضان من أتباع نموذج ديوباند لكن بثياب عليكره، وإسلام من أتباع أجمر في ثياب ديوباند[31].

لذلك كله، لا يشاهد أو يسمع الأمريكيون المسلمين بوصفهم مواطنين عاديين يتبادلون الأحاديث اليومية عن تشكيلة متنوعة من القضايا التي تهم الأمة. بل يدور النقاش حولهم ويعرف دينهم كلية تقريبا بواسطة غير المسلمين. ومن ثم فإن الفهم المغلوط والإدراك المشوه أمر مضمون. ولذلك ليس لدى الأمريكيين سوى فهم ناقص عن المسلمين في أفضل الأحوال. وحين نأخذ بالاعتبار مدى تدخل الأمريكيين في العالم الإسلامي والحاجة إلى اتخاذ قرارات، غالبا ما تكون بالغة الأهمية بل تعد مسألة حياة أو موت، يمكن أن يكون هذا الافتقار إلى الفهم كارثيا.

تمثلت النتيجة في أن الأغلبية الساحقة من المعلقينوفقا لملاحظاتهم على شاشات التلفزيون وعناوين كتبهم - عاينوا عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر بطريقة

مبسطـة وسطحيـة ومن منظـور الأمن والإرهـاب والحرب على الإرهـاب. ومعظمهم لم يخف عداءه للمسلمين بطريقة شمولية بل حتى طائشة تفتقد التروي والعقلانية. في حين تظاهـر غيرهم بأن المسلمين غير موجودين. علـى سبيل المثال، لم يوجد مسلم واحد بين مؤلفي كتاب "العالم الإسلامي بعد الحادي عشر من سبتمبر"، هو دراسة مستفيضة من خمسمئـة وعشرين صفحة لمؤسسة راند[32]. والأسـوأ عدم وجود أنثروبولوجي واحد بين المؤلفين يمكن أن يخبرنا عن الثقافة والتقاليد والمذاهب والقيم الإسلامية.

وسعيـا وراء تهييـج وإثـارة العواطـف، تجاهلت وسائـل الإعلام العلمـاء والباحثين الغربيين الحقيقيين -وليسوا بالضرورة من المسلمين - الذين بذلوا جهدا مضنيا لدراسة الموضـوع طوال عقود مـن السنين. فالأكاديميـون المختصون من أمثـال كليفورد غيرتز، ولورنـس روزن، وجون اسبوزيتـو، وجون فول، وتامارا سون، نادرا ما وجهت إليهم الدعوة لتفكيـك مـا كان يدور حول الموضوع الذي كرسوا حياتهم له. بدلا من ذلك، لجأت وسائل الإعـلام إلى خدمـات أولئـك الذين يفهمـون الإسلام من منظـور التهديـدات الأمنية، والهجمات الإرهابية، وعنف المتطرفين والمتشددين. ولم يكن لديها ما يكفي من الوقت أو الصبر لإجـراء مناقشات موضوعية عن التاريخ والمجتمع والقبيلة والمذهب. لذلك، ألقى المعلقون علـى مسامع جمهورهم محاضرات عن "الإسـلام والإرهاب" دون تفسير يمهد لفهم أساسيات الإسلام.

لم يفـت على العالم الإسلامي ملاحظة التصوير السلبي للإسلام في وسائل الإعلام الغربية. فقد عبر المسلمون طوال رحلتنا بإلحاح واستمرار عن قلقهم من الإدراك المغلوط والفهم الخاطئ للإسـلام. وأظهرت الاستبيانات أن أغلبية واضحة من المبحوثين ذكروا "الأفـكار الغربية المغلوطة عن الإسـلام" بوصفها التهديد الأخطر الذي يواجه العالم الإسلامـي. وعبر الرؤسـاء والأمراء والشيـوخ والطلاب عن القلق بـل الخوف من الهوة الواسعـة بـين ما يعرفونه عـن الإسلام وتصورهـم لكيفية رؤية الغرب لـه. أما ردم هذه الفجوة، برأي المسلمين، فتمثل أعظم تحد يواجههم في المستقبل.

أثـارت غضب العديد مـن المسلمين الشخصيات التي يرونهـا تتحدث باسم الإسلام في وسائـل الإعـلام الغربية دون أن يكون لها الخلفية الأكاديميـة أو الاجتماعية اللازمة.

ايـان هيرسي علي في أوروبـا، وإرشاد منجي في كندا، وأسرا نوماني في الولايات المتحدة، ظهرن جميعا بـين عشية وضحاها لتحدي الزعامة التقليدية والقيم والأفكار الإسلامية. وألفـت كل منهن كتبا لقيت رواجا كبيرا، وتحدثت عن "إصلاح الإسلام" بأسلوب يحجم عنـه حتـى أكثر علماء المسلمين تفقها ورسوخا في العلـم وتضلعا من المذاهب[33]. وبرأي المسلمين العاديين، يبدو أن هؤلاء النساء يتعمدن الاستفزاز، ويتحدين بعض القيم الثقافية الجوهرية في الإسلام في كتاباتهن وسلوكهن. في حين يستقبح المحافظون المسلمون النسوة الثـلاث: ايان هيرسي لأنها عملـت في سيناريو فيلم يصور امرأة نقشت آيات قرآنية على جسدهـا العاري؛ ومنجي لأنها أعلنت مثليتها (سحاقيـة)؛ ونوماني لأنها حملت سفاحا، ودعـت المصلين إلى مسجدهـا المحلي لتؤمهم فيه، وإمامة الصـلاة لا تجوز للمرأة. وبلغ غضـب المسلمين درجة من اللاعقلانية على هـذه النساء بحيث تعرضت لانتقادات حادة حين ظهرت معهن في برامج تلفزيونية. فبحديثي معهن، حسبما قال المنتقدون، أمنحهن الشرعية.

تمثـل انطباعـي بعد مقابلـة النسوة الثلاث في أنهـن يتمتعن بالذكاء ويـردن بتشوق الإسهـام في النقاش عن الإسلام، آملات في أن العثـور على آذان متعاطفة وأيد ممدودة لهـن في وسائـل الإعـلام سوف تساعدهـن في "إصلاح" حـال الإسلام. وخـلال مقابلة اسـتمـرت سـاعـة من الـزمـن جمعتني وجها لوجـه مـع أسـرا نوماني علـى شـاشـة "C - SPAN" عام 2005، أثرت مشكلات الإصلاح في الإسلام، التي كانت تطالب به. وشرحت قائلا إن الإصلاح يستدعي إثارة قضايا لاهوتية وفقهية وشرعية معقدة. فعقيدة الإسـلام متجذرة بعمق في كتاب واحد، هو القرآن، ورجل واحد، هو النبي، ومن المستبعد أن يؤيد التيار الغالب من المسلمين محاولات المساس والتلاعب بأي منهما. أما ما يتطلب الانتباه، كما افترضت، فهو حقوق المرأة التي تأخر الاعتراف بها، وتحسين معايير التربية والتعليـم، وإدخال الديمقراطية. وتمكنت من إقناع أسـرا بأن الكلمة التي هي أفضل من "الإصلاح" في الاستعمال ستكون "النهضة"، أي استنهاض الإسلام. ولم أكن أرى أسرا – ولا زميلتيهـا الأخريين – كمارتن لوثر الإسلام. فـإذا كان التغيير قادما – وهذا حتمي – فيجـب أن يأتي من داخـل إطار إسلامي وبواسطة المسلمين الذين يتمتعون بالمصداقية

داخـل مجتمعهم. وبـرأي معظم المسلمـين، يناقض سلوك هـؤلاء النسـاء الثلاث القيم الإسلاميـة، ويعارض ثقافتهم التقليدية، ولذلك يؤكدون أنهن لسن مسلمات "حقيقيات" بل غريبات ولا منتميات إلى الدين.

من نافل القول إن وسائل الإعلام، الباحثة دوما عن بعض القضايا الخلافية المحيطة بالإسـلام، رعـت هؤلاء النسـوة بكل حماس. في فيلادلفيا، وفي مؤتمر الشـؤون الدولية المذكـور آنفـا، سمعت مـن يصف ايان هيرسـي علي بـ"البطلـة" التي امتلكـت "الجرأة والشجاعـة للوقـوف في وجـه طغيان الإسـلام واستبـداده". أما سيرة حيـاة ايان "التي تستحـق التكريم"، كما خاطبها المؤتمر، فتوضـح العلاقة المستمرة بين الغرب والإسلام. ففـي سن الرابعة عشرة وصلت إلى هولندا لاجئة من الصومال، ثم اكتسبت سمعة سيئة حـين هاجمت بعض جوانب ومظاهر الثقافة الإسلاميـة، خصوصا ما عدته سوء معاملة المـرأة. ونالت شهرة عالمية كاسحة حـين كتبت سيناريو فيلم وثائقي تلفزيوني قصير عن العنف ضد المرأة المسلمة بعنوان "إخضاع"، من إخراج ثيو فان كوخ، أحد أحفاد الرسام الهولنـدي الشهـير. ثم قتل ثيـو في امستردام عـام 2004 على يد مسلـم مغربي الأصل تـرك ملاحظة على جسـد ضحيته تعد بأن تكون ايان هيرسي علي التالية. لذلك، تطلبت حراسة شخصية مستمرة وساد الخوف الرهابي من الإسلام في أوروبا.

دافعـت شريحـة معينة من المجتمـع الأوروبي دفاعا شرسا عن حـق ايان هيرسي في حريـة التعبير عن آرائهـا. في حين انتقدها آخـرون وعدوا محاولاتهـا تستهدف الشهرة الذاتية ومجرد طلقات رخيصة تسددها على أمة مستضعفة ومقموعة. وعلى وجه العموم، ثـار غضب المسلمـين وهياجهم، وتفاقمت الحالة حين أيدت ايـان هيرسي علي علنا نشر الرسـوم الكرتونية المسيئة للرسول. وبدا الآن أنها تؤذي مشاعر الأمة الإسلامية برمتها، التي لم تأبه كثيرا لردتها عن الإسلام. فإما أنها تتعمد الاستفزاز أو تستخدم أداة لإذلال الإسلام.

في أيـار / مايـو 2006، تفجـرت قضية دولية كبـيرة نتيجة تهديد الحكومـة الهولندية بسحب الجنسية من ايان هيرسي لأنها كذبت وزورت في وثائقها الرسمية حين تقدمت بطلب اللجـوء السياسي عام 1992. ولربما كانت ايان تتوقـع هذه الخطوة، حيث أعدت الترتيبات

اللازمة لمغادرة البلاد. فقد عرض عليها منصب مغر في إحدى المؤسسات الاستشارية اليمينية الشهيرة في واشنطن: "أمريكان انتربرايز". وأكد خروجها المخزي من هولندا وحرارة استقبالها في واشنطن شكوك المسلمين بأنها مسلمة تستخدم أداة لإذلال الإسلام.

وبالمقابل، يرى العديد من الأمريكيين ايان هيرسي علي بطلة من طراز روزا باركس أو كوريتا سكوت كينغ - امرأة شجاعة وجريئة تقف في وجه قوى الطغيان والاستبداد في مجتمعها. ويمكن للأمريكيين التواصل والتعاطف معها لكن لا يبدو أنهم مدركون حقيقة أنها تستخدم معرفتها بالإسلام لإثارة أسوأ مخاوفهم واستغلال أحكامهم المسبقة المتحيزة تجاه الإسلام. وفي حين أنها أبرزت نفسها كمصلحة إسلامية، إلا أنها انتهكت في الحقيقة جميع أنواع الحدود الثقافية والدينية في نظر المسلمين، إلى درجة أنها لم تعد تمثل أي جانب من جوانب ملتها. إضافة إلى ذلك، يعد المسلمون أمثال ايان هيرسي علي خونة غدروا بالأمة، وطعنوها في الظهر وقت الشدة. ومع أن قلة من الأمريكيين يدركون استخدام ايان المتعمد للإسلام لمآربها ومكاسبها الخاصة، إلا أن لمضيفيها في أمريكا أسبابا سياسية أشد سوءا للترحيب بها، وليس لمجرد إظهار حسن وفادتهم. إذ يمكن استغلال وجودها لإظهار الطبيعة المتخلفة والمتعصبة المزعومة للإسلام، ومن ثم الحاجة إلى الاستمرار في محاربته. فلم إذن يروج المعلقون الغربيون ويشجعون مثل هذه الشخصيات العدوانية حين يكون لدى التيار الغالب من المسلمين تحفظات قوية عليها - في الحقيقة لم يعدها أحد قدوة في أي من المقابلات التي أجريناها. زعم أحد هؤلاء المعلقين، اندرو بوستوم، أن ايان "مصلحة صادقة ومخلصة فكريا للإسلام"، في حين هاجمني لأنني ما زلت أكتب عن النبي "باحترام ومحبة"[34]. واستخدم الحجة ذاتها في حوار مع جوديا بيرل، الذي يروج الحوار اليهودي - الإسلامي معي. وأظن أن أشخاصا مثل بوستوم يشيرون إلى أن أولئك المسلمين الذين يرفضون التراث والتقاليد الإسلامية، مثلما فعلت ايان، هم وحدهم المقبولون بوصفهم مسلمين "يصح إسلامهم". وهنا نجد تجربة في إصلاح الإسلام تجري من خارجه.

التصوير السلبي المنفر والمهمش للإسلام سوف يوسع ويعمق الصدع بين الغرب والتيار الغالب من المسلمين. فإذا كان الغرب صادقا في فهم الإسلام، يجب عليه استشارة

العلمـاء الجاديـن واستنصاح الباحثـين الراسخين في العلم، كما يعتقـد المسلمون. لكن بـدلا من ذلك، يعد الإسلام ديـن العنف والتطرف والعدو الجدي العالمي للغرب، بعد أن تحـول من دين محبي السلام مثـل الرومي ورابعة وتشستي (الـولي في أجمر) إلى دين الإرهاب.

كيف يعرف المسلمون الإسلام؟

أدرك فريقنـا، عـبر الاستبيانات التي وزعهـا والمقابلات التي أجراهـا، الإحباطات وخيبـات الأمل، والأفكار والآمـال الكامنة لدى العديد من المسلمين - من الناس العاديين في الشـوارع والمنـازل والاجتماعـات واللقـاءات الجماهيريـة - وسمع أصواتهـم التي لا يسمعهـا أحـد اليـوم (انظـر الملحق). تمكـن المبحوثـون من تعريـف وتحديـد أنفسهم بأنفسهم، واختيار النماذج التي يحتذى مثالها بطريقة غير مباشرة، وتلك مقاربة مفيدة نظـرا لأن العديد من المسلمين يحجمون عـن التحدث صراحة عن مثل هذه الأمور بسبب الجو القامع المهيمن علـى بعض بلدانهم. فقد تسيء السلطات فهم وتفسير حتى الأسئلة البريئة عن الإسلام وقضايا التحديث بوصفها انتقادا ضمنيا للنظام الحاكم. وفي سبيل الالتفـاف علـى هذه العقبة المقيـدة وتجنب وضع المبحوثين في وضع محـرج، طلبنا منهم اختيـار نماذجهم التي يحتذى مثالها من الرموز المعاصـرة. وكشفت إجاباتهم عن خيبة أمـل مشتركة مـن الافتقار إلى زعماء وقادة للمسلمين يمثلون العلم أو المعرفة أو العدل أو الإحسـان أو التراحم، وهي قيـم يريد المسلمون رؤيتها في مجتمعهـم. لكن فكرة الماضي الإسلامـي البطولي تقاسمها المبحوثـون على نطاق واسع. فالنبي هـو أكثر الشخصيات إلهاما للمسلمين في كل مكان، يتبعه صحابته وآل بيته، الذين يجسدون المجتمع الإسلامي المثالي. أخيرا، كانت نماذجنا الثلاثة - أجمر وديوباند وعليكره - واضحة ومرئية في كل مكان من العالم الإسلامي، ويبدو أنها تشهد تغييرات مثيرة ومتنوعة وهي تتكيف مع عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر.

المسلمـون الأمريكيون القادرون على التعبير عن آرائهـم بحرية يحتلون موقعا فريدا متوسطـا بين الحضارتين الغربيـة والإسلامية، ويشعرون بأنهـم زعماء المستقبل وممثلو الأمـة. لكن في مواجهـة الطبيعة العنيفة المنمطة والمزعومة للإسـلام، عجز أحيانا حتى

أولئـك الذيـن يعيشون في الولايات المتحـدة عن نقل الطبيعة الحقيقيـة لدينهم إلى غير المسلمـين، وكثـيرا ما انتهى بهم المطـاف وهم يعززون صورته السلبيـة. هذا ما حدث في المؤتمـر السنوي للجمعيـة الإسلامية في أمريكا الشمالية الـذي عقد في دالاس في تموز/ يوليـو 2006، حيث ألقـت ملاحظات أحد زعمـاء الجالية الإسلاميـة، ورئيس الجمعية التـي تمثل المسلمـين في القارة برمتها، ظلالا من الشك علـى المفهوم الإسلامي الشرعي للجهاد أمام جمهور شمل غير المسلمين. وحين كنت على وشك إلقاء خطبة توضح الأفكار الأساسيـة بعده فـورا، رأيت من المنبر نظرة الرعب والقلـق والانزعاج على وجوه ضيوفي الأمريكيينوفيهم هيلي وأسرتها المقيمة في دالاسالذين يجلسون في الصف الأمامي.

مـا سمعـه وشاهـده المسلمـون الحاضـرون كان زعيما مشهـورا ومحترمـا للجالية الإسلامية، بلحيته المشذبة ونظراته المتحمسة التي تدعوهم إلى الانضمام إليه في الجهاد – وهـم يعلمون أنه يقصد النوع الروحي من الجهاد – وتطلب منهم إظهار التزامهم عبر تكـرار عبارة "الله أكبر" بصوت مدو. وبـدت لكنة جنوب آسيا في حديثه مألوفة ومريحة لغالبيـة الحاضرين حيث فاق عـدد المهاجرين الشيوخ عدد الشباب المولودين في أمريكا. لكن ما شاهده الأمريكيون كان رجلا ملتحيا مصفر الوجه جامح النظرات يصرخ داعيا للجهـاد عبر الميكرفون بلكنة أجنبية ليثير هياج الحاضرين ويدفعهم لتكرار صيحة "الله أكبر". ولأن الأمريكيين الحاضرين كانوا محاصرين بمئات المسلمين الذين يرتدون الزي الإسلامي التقليدي ويهتفون بكلمات مثل "الجهاد" و"الله أكبر" دون أي تفسير يشرحها، شعـروا بالتهديـد والترهيب. فإضافـة إلى كل ما عرفوه، تأكد لهـم الآن النمط المألوف: جهادي يحمل قنبلة يدوية ويصرخ: "الموت للكفار"، ويفجرهم جميعا في طريقه إلى جنة الخلـد ليتمتع بحور العين اللاتي تحدثت عنهن وسائـل الإعلام. عرفت أن كلمة "جهاد" تعنـي للأمريكيين العدوان العسكري الذي يشنه المسلمون، وأنهم سوف يسيؤون تفسيرها على الفور. لذلك، غيرت ملاحظاتي الافتتاحية لأفسر ما قصده الرجل بالجهاد، الذي لم يكن يعني العمل الحربي بل الحوار الروحي وتمكين الجالية الإسلامية فكريا وديمقراطيا داخل الولايات المتحدة.

الجهد الشاق والمخلص الذي بذله زعماء مسلمون، مثل محمد السنوسي، من الجمعية الإسلاميـة في أمريكا الشمالية، الذي كان حاضرا وقـال فيما بعد إنه لم يشعر بالارتياح

لاستخدام كلمة "جهاد" في ذلك السياق، يتعرض للانتكاس والخروج عن الخط المرسوم بسبب ملاحظات وتعليقات يساء فهمها بكل سهولة. فإذا لم يعرف الإسلام بأسلوب حساس ثقافيا لغير المسلمين، فإن فجوة المعلومات المحيطة بالدين ستنمو وتتسع وتسمح بظهور المفاهيم الخاطئة والتصورات المغلوطة لمثلها وتشويه وتحريف التعريف الحقيقي والصحيح للدين. لكن مثل هذه الحساسية تبرز ببطء لدى الجالية الإسلامية، كانتخاب انغريد ماتسون، الأمريكية (البيضاء) التي اعتنقت الإسلام، والأستاذة البارزة في جامعة هارتفورد سيميناري، رئيسة للجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية منذ مدة قريبة.

بعض المسلمون يعرفون أنفسهم باعتزاز بوصفهم مسلمين أمريكيين، لا عربا، أو باكستانيين، أو من السود. وبذلك تكونت هوية جديدة. وعائلة الحسن مثال معبر في هذا السياق. فقد ولد مالك حسن في نيودلهي قبل استقلال الهند عام 1947، وهاجر إلى الولايات المتحدة في أواخر السبعينيات، ليمارس طب الأعصاب بنجاح في أرياف كولورادو. وأدى التزامه وإخلاصه لمرضاه إلى تأسيس منظمة للحفاظ على الصحة، صممت لتحدي الممارسات التقييدية والتقليدية لباقي مؤسسات ومنظمات المحافظة على الصحة. وبسبب دأبه ومثابرته، نمت المنظمة وتحولت إلى شركة "Fortune 100"، وهي إحدى الشركات القليلة التي يرأسها مسلم أمريكي. ونال جوائز على مقدرته التقانية من معهد "سميتثونيان" ومن مجلة "فوربس".

وأصبحت زوجته سيمي حسن، خريجة كلية كينيرد في لاهور (بباكستان)، ناشطة لا تهدأ في بلدتهما بوبيلو (بولاية كولورادو)، حيث تشارك في مختلف النشاطات المدنية وتجمع التبرعات لها، ومنها فرقة للعزف والباليه؛ وتنظم اختبارات وفحوصا للنظر لأطفال الأسر المحدودة الدخل؛ بل احتجت على التغييرات في المباني وأنواعها وترخيص بيع المسكرات في الأحياء السكنية. واشتهرت بمساعدتها للأطفال من ذوي الأصول اللاتينية، خصوصا إشراكهم في برامج الفنون التي كانت مقصورة في السابق على البيض فقط. ودعت المنظمة جائزتها السنوية الرئيسة "جائزة سيمي حسن للسلام". وعند تعيينها في مجلس كولورادو للفنون، أقر حاكم الولاية، الديمقراطي روي رومر، بجهودها المخلصة في مجال الفنون والتعليم، وبلغ مجموع ساعات العمل التطوعي الذي أدته عشرة آلاف. حماس

سيمـي حسـن الشخصي انتقل إلى الإشراف على "مؤسسـة أسرة حسن"، التي ساهمت بما يزيد عن خمسة ملايين دولار في مختلف المجالات والقضايا في الولايات المتحدة. أما غرض المؤسسة الرئيس فكان تشجيع الفهم المتبادل بين المسلمين والأمريكيين، وهو هدف وضعتـه قبل الحادي عشر من سبتمبر. ركزت سيمـي اهتمامها على تقديم ثقافة جنوب آسيا بطريقة إيجابية للمجتمع الأمريكي، فأسست شركة موسيقية(iSufiRock)، تنتج موسيقى جنوب آسيا، والموسيقى الصوفية المعزوفة بنغمات "الروك".

المنظمـة الثقافيـة "سفير باكستـان" والتلفزيـون الباكستاني اختـارا سيمي "امرأة العـام". وبعد الحادي عشر من سبتمبر، ركزت جهودهـا الدؤوبة على إيجاد فهم أفضل بين المسلمين والأمريكيـين، ومارست ضغطا خاصا على البيت الأبيض والكونغرس لإلغاء برنامـج التسجيـل الـذي أقر بعد أحـداث سبتمبر، ووقـف حملات الاعتقـال العشوائية للمسلمين، لاسيما الباكستانيين المقيمين في الولايات المتحدة. أدت هذه الجهود السياسية إلى تأسيـس جمعيتي "المسلمـون المؤيدين لأمريـكا" و"المسلمون المؤيـدون لبوش"[36]. وعمـل الزوجان، سيمي ومالك، على ترويج وتشجيـع الرعاية الصحية، والفن، والثقافة، والتعليم. وساهما بأكثر مـن مليوني دولار لجامعة كولورادوبويبلو، حيث تقع "كلية حسن للأعمال" و"مدرج حسن".

تابـع الأبناء تراث الأبوين، حيث عملوا في مجـالات الطب ووسائل الإعلام والمحاماة والفن: محمد علي مخرج أفلام يستخدم أفلامه غالبا لتسليط الضوء على قصص حياة المسلمـين الأمريكيـين، ويكتب باستمرار ويظهـر على شاشات التلفزيـون ليناقش قضايا السياسـة الخارجيـة المتعلقـة بالإسلام. عليـاء طبيبـة وأسماء محاميـة، وكلتاها تدلي بأحاديث كثيرة وتجرى معها المقابلات حول الإسلام والمرأة المسلمة. أسماء ألفت كتابين عـن الإسـلام في أمريـكا، وتصف نفسهـا بأنها "راعية بقـر نسوية مسلمـة" في كتابها: "لماذا أنا مسلمة: أوديسا أمريكية"[37]. وحين قدمتْ محاضرة أمام طلابي في الجامعة الأمريكية، استمتع الطلاب بحديثها ومقاربتها السهلة وعدم اهتمامها بشهرتها. وناقشت ظهورها في برنامج بيل ماهر "خاطئ سياسيا"، حين تناولت الزواج الإسلامي التقليدي. ولا ريب في أن عائلة حسن تمثل ما هو ممكن للأمريكي والمسلم في آن معا.

يمكـن أن يشكل المسلمون الأمريكيون مصدر قوة ونفع للولايات المتحدة. ومثلما أشار أحد الطلاب من واشنطن (في استبيان أجري قبل مدة): "(يمكن) للمسلمين في الغرب أن يوفـروا جسرا واصلا بين الجانبين. لكن الدول الغربيـة بحاجة إلى إدراك أن طريقة معاملتها للمسلمين في الداخل سوف تؤثر في سمعتها في العالم الإسلامي. أعتقد أيضا أن علـى الشباب المسلمين في الغرب التواصل مع أترابهم في العالم الإسلامي، عبر الإنترنت مثـلا، وتقاسـم تجاربهم في الغرب وما تعلموه عن الحريـة والحريات المدنية". أما الأمل الحقيقي لمستقبل المسلمين الأمريكيين فيكمن في جيل الشباب، الذي يشعر بروابط وثيقة مـع الولايات المتحدة، بعد أن نشأ وترعرع على موالفة وتركيب وجمع الثقافتين المختلفتين للآباء والوطن الجديد.

مـا زال المهاجرون المسلمون وأولادهـم في الولايات المتحدة متمسكـين بقوة بهويتهم الدينيـة، مع أنهم يعيشـون في ديمقراطية غربية. ويشابه ما اختـاروه من نماذج يحتذى مثالهـا تلـك التـي اختارها إخوانهـم في شتى أنحـاء العـالم الإسلامي. ومثلمـا كشفت الاستبيانـات الإضافية التي وزعت في / وحـول واشنطن، فإن الشخص الأكثر إلهاما من الماضـي للمسلمـين الأمريكيين هو النبـي، يتبعه أبو بكر وعلي وخديجـة. أما اختيار عمر وصلاح الدين، اللذين يعدهما المسلمون من القادة المنتصرين في تاريخ الإسلام، فيظهر الرغبـة في التطلـع نحو المثل الأعلى المطلـوب اليوم. النماذج الأخـرى شملت محمد علي (كلاي) ومالكـوم اكس، اللذين يراهما المسلمون مدافعين عن الإسلام صمدا في ظروف صعبـة وذاعت شهرتهما وانتشرت. ومـن النماذج الأخرى المثيرة للاهتمام التي اختارها المسلمـون الأمريكيون عيسى المسيح، وجلال الدين الرومـي، ومحمد علي جناح، وحمزة يوسـف (العالم الأمريكـي الذي اعتنق الإسـلام)، وعمرو خالد (الداعيـة الذي يحظى بالشعبيـة في الشـرق الأوسط)، واورانغزيـب (الإمبراطور المغـولي)، وآية الله الخميني (قائـد الثورة الإسلاميـة في إيران). ومن نافل القـول إن اورانغزيب والخميني يصنفان ضمن نموذج ديوباند. هنالك نسبة قليلة من المسلمين الأمريكيين اختارت بن لادن، وهذا خيار مفاجئ وجريء نظرا للجو السياسي المخيم على الولايات المتحدة.

ولأن المسلمـين يعيشـون في أوروبا منذ عهد أقدم بكثير مـن الولايات المتحدة، سوف يغنـي عبـور المحيـط الأطلسي النقاش حـول تعريف الإسـلام. ومن بين زعمـاء مسلمي

أوروبـا، أبدى مفتـي البوسنة مصطفـى سيريتش إعجابه بالمفكريـن المسلمين العظام - الغـزالي وابن رشد وابن تيميه - واختارهم نماذج يحتذى مثالها، كما قال لي في الدوحة عـام 2006 حين كنا نحضر مؤتمر بروكينغز حول العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامـي. تحدث سيريتش (ذو البشرة البيضـاء، الذي يرتدي ثوبـا إسلاميا تقليديا ويعتمـر طربوشا)، بأسلوب منطقـي يميز المفكر الأوروبي: "أنا غاضب أشد الغضب على الغـزالي"، مـع علمه بأن ذلك يمثـل استفزازا نظرا للتقدير الكبير الـذي يكنه المسلمون للإمـام الغزالي. وأضاف إنه يحب الغـزالي جدا لكنه يشعر بأن مراجعة الذات التي قام بهـا في أواخـر أيامه، أخـذت الأمة إلى طريق خاطئ عـبر إدانة الفلسفـة والتبرؤ منها، ووضـع بذلك سابقة تحمل مسؤولية كبت الفكـر العقلاني في الإسلام. وقال وعلى محياه ابتسامة ساخرة: "عندما أقابل الغزالي في الدار الآخرة سوف أسأله عما فعله".

مـن بـين المفكرين والفقهـاء الذين يحظـون بإعجـاب سيريتش ابـن تيميه الذي سـادت آراؤه وانتشـرت. إذ إن فلسفتـه المتشـددة اخترقت وتخللـت المدارس الدينية. ويبدو أن قراءته الحرفية للقرآن وحثه على العمل -مقابل تقرب الغزالي من الصوفية - يجتذبـان مـزاج المسلمين اليـوم. فهو مثل أعلـى للمجموعات الدينيـة في السعودية وباكستـان. أضاف سيريتش بنوع من الأسف: "حـان الوقت لنشاطية المسلمين العملية وعـدم الاكتفاء بتكريـس الجهود للمسائـل الفكريـة والمعضلات النظريـة المجردة"، ملاحظـا أن مسلمـي هـذه الأيـام يعيشـون في حقبة خطيرة مـن "عـدم اليقين على الصعيـد الثقـافي" و"وازدراء الذات". ونتيجة لذلك، يتطلعـون باستمرار إلى الماضي ليستمدوا منه إلهامهم: "تاريخنا هو تاريخ الماضي وتركنا المستقبل إلى الغرب". ويبدو أن سلسلـة الكـوارث لم تحـدث تأثيرا. فنسبـة 70% من اللاجئـين في العالم هم من المسلمين، كما قال؛ وغالبية ضحايا تسونامي الذي ضرب آسيا والزلازل اللاحقة كانوا من المسلمين؛ ومعظم الحروب الراهنة تجري على أراضي المسلمين؛ ولم تحل حتى الآن مشـكلات الفلسطينيين والكشميريـين والشيشان. وأبلغنـي أن آلاف المسلمين قتلوا في بلاده (البلقان). وأنتجت كل أزمة عددا لا يحصى من اللاجئين والنازحين، وما زالت لائحة اللاجئين المسلمين تكبر واستياؤهم يتعاظم.

حين سألته بإلحاح عن الحل، بدا متفائلا إلى درجة غير عادية بعد التحليل المتشائم الـذي قدمه للتو. قال مؤكدا: "نحن بحاجة إلى فهم الغرب بصورة أفضل. وإقامة توازن في الاتجاهات والتوجهات في المجتمعات الإسلامية بين نموذج أتاتورك العلماني والنماذج الإسلاميـة الكاملة التي قدمها سيد قطب وأبو الأعلى المودودي (أي بين نموذجي عليكره وديوبانـد وفقـا لمناقشتنا في هذا الكتاب). الجواب، برأيـه، لا يتمثل في دمج المسلمين في الغرب، بل في التعاون بين مختلف الشعوب. ومع أنه غير متأثر ولا مقتنع بالقيادة الفكرية الإسلامية المعاصرة، إلا أنه يضع ثقته في المستقبل، معتمدا على التفاؤل الضمني المستمد من القرآن. وحين طلبت بإلحاح تفسيرا لندرة المفكرين المسلمين من أمثال الغزالي وابن رشـد، برغـم الموارد الهائلة التي يملكهـا المسلمون، وهي فكرة سهـل التعبير عنها ونحن جالسـان في الفنـدق الفخم المترف في الدوحة، وتحديته أن يقدم ولو اسما واحدا، ارتبك قليـلا ثم قال وقد تألق بريق في عينيه: "لكننا قدمنـا أكبر أحمد". وكانت العبارة وسيلة ذكية للتهرب من الجواب، وإن سرني سماعها من أحد أبرز المفكرين المسلمين.

بسبـب الافتقـار إلى مثل هذه القيادة، لا يعرف المسلمـون في شتى أنحاء العالم ماذا يفعلـون أمـام رياح العولمة التي تهب عليهـم وإن تمثلت ردة فعلهـم في الغضب[38]. فبعد الحـادي عشـر من سبتمـبر 2001، ربط معظـم الغربيين الإرهابيـين المسلمين الشباب بالعـرب لأن منفـذي الهجمات التسعـة عشر كانوا منهـم وأتوا من بلـدان عربية. وساد افتراضـ يقول إن المسلمين الذين يعيشون في الغرب اندمجـوا كليا في المجتمع ولم يمثلوا تهديدا محتملا لأمن الدول الغربية. لكن أتت الصدمة حين تبين أن العديد من المسلمين المتورطـين في المحاولة المجهضـة لتفجير طائرات ركاب مدنية فـوق المحيط الأطلسي في صيف عام 2006 هم مواطنون بريطانيون من أصل باكستاني.

لم يفاجئني الأمر تماما لأنني رأيت – وكتبت عنالتغييرات الدرامية التي كانت تحدث طوال جيل كامل في الجالية الباكستانية المقيمة في بريطانيا وفي المجتمع البريطاني. أتيت إلى بريطانيـا أول مـرة في الستينيات طالبـا جامعيا، وعدت مرة أخـرى في السبعينيات للحصـول على درجـة الدكتوراه، ثـم عدت مرة ثالثـة في أواخر الثمانينيـات للانضمام إلى جامعـة كيمـبردج كمدرس زميل، حيث بقيت حتـى تعييني مندوبـا ساميا لباكستان

في المملكة المتحدة بين عامي 1999.2000. وبحلول نهاية القرن، شكل الباكستانيون أكبر مجموعة إثنية بين المسلمين البريطانيين، والعديد منهم عاشوا في مجتمعات محلية معزولة في البلدات الشمالية. وخلافا للجيل السابق، فقد ولد هؤلاء المسلمون في بريطانيا ولم تكن لديهم النية للعودة إلى الوطن الأم. ونظرا لأنهم حرموا السلطة السياسية والاقتصادية الحقيقية وكانوا هدفا مستباحا للعنصرية والتمييز، أغضبهم وأحنقهم تصوير وسائل الإعلام لدينهم وثقافتهم بطريقة سلبية، وهي حملة تكثفت واشتدت خلال الجدل الخلافي الذي ثار حول رواية سلمان رشدي "آيات شيطانية"، حيث صور المسلمون على هيئة مجتمع محلي غاضب يحرق الكتب ويمنع حرية التعبير. وكان تركيز وسائل الإعلام هذا - برأيهم - جزءا من هجوم صاعق ما بعد حداثي يستمد إلهامه من الغرب ويستهدف المسلمين وتقاليدهم وقيمهم التي يعتزون بها[39].

شهدت في كيمبردج (في التسعينيات) هذه الاتجاهات والنزاعات تتطور في مجتمع الجالية الإسلامية في بريطانيا، وشعرت بالقلق لذلك: في إحدى الحالات، استولى شباب متطرفون وملتحون، وقد تأثروا بالسياسة الإيرانية، على مسجد محلي ومنعوا الشيوخ الذين كانوا يديرونه ذات يوم من دخوله؛ في حالة أخرى، هددوا بمنع/ والاعتداء بالضرب على أي مسلم يشارك في مناسبة نظمتها الجمعية الباكستانية للرقص الفلكلوري الشائع في أرياف البنجاب بوصف الرقص ممارسة غير إسلامية[40]. ومع تصاعد التوتر في المجتمع الإسلامي، وبقاء أسباب مشكلاته المعقدة دون حل، خشيت من مواجهات أكثر مأساوية، وربما عنيفة في المستقبل إلا إذا تقدم الزعماء المسلمون والبريطانيون لمعالجة المشكلة المتفاقمة بحكمة وتعاطف وتراحم.

كتبت - مع كثيرين غيري - تعليقات على ما كان يحدث، وشاركت في المبادرات الهادفة إلى تعزيز التفاهم بين الأديان، وكنت عضوا في لجنة رونيميد لدراسة مشكلات المسلمين في بريطانيا واقتراح التوصيات المناسبة[41]. فضلا على ذلك، تكرر ظهوري في وسائل الإعلام لأتحدى بعض التوجهات في المجتمع المسلم[42]. وفي هذا السياق بالذات - الحاجة إلى تفسير وشرح القضايا الإسلامية أمام المسلمين وغير المسلمين - أطلقت مشروع "رباعية محمد علي جناح" لإحياء نموذج عليكره، ولسوف أناقشه في موضع لاحق من هذا الفصل.

مثلت التسعينيات علامة دالة على نضج جيل جديد من المسلمين تعرض للتهميش أساسا بل للإقصاء عن التيار الغالب في المجتمع، لا في بريطانيا وحدها بل في بقية بلدان أوروبا أيضا. ومع أن المسلمين هاجروا إلى المنطقة نتيجة تجارب ودوافع تاريخية مختلفة المهاجرون القادمون من جنوب آسيا توجهوا غالبا إلى بريطانيا، في حين قدم المهاجرون من شمال إفريقيا إلى فرنسا وإسبانيا، وتوجه الأتراك إلى ألمانيا إلا أن المبادئ التكوينية للمزاج العام الجديد السائد بين هؤلاء المسلمين متشابهة ومتماثلة. وفي سياق نماذجنا الثلاثة، يمكن رؤية نموذج أجمر يبهت ويضمحل، ونموذج عليكره يضعف ويهمش، بينما يكتسب نموذج ديوباند مزيدا من الأتباع ويزداد رسوخا وثقة. نموذج ديوباند هو الذي سيطر على عناوين الأخبار في وسائل الإعلام الغربية، وأقنع الناس بهامشية وعدم أهمية النموذجين الآخرين.

ساهم عدد من التطورات الدولية والمحلية في حالة الغضب والتحدي الجديدة بين المسلمين. فنجاح الحرب الأفغانية في إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفييتي، وحماسة ثورة الخميني الإسلامية في إيران، وفتواه بإهدار دم سلمان رشدي، وتزايد العنصرية ضد المهاجرين المسلمين، أقنعت المسلمين بالكف عن قبول ما يتعرضون له من ظلم باستكانة وسلبية، مثلما كان يفعل آباؤهم المهاجرون[43]. ونفد صبرهم في نهاية المطاف حين تعرض المسلمون للقتل والاغتصاب في كشمير والشيشان والبلقان - وتجسد ذلك بأوضح صورة في مذبحة سربرينتشا، حيث ذبح آلاف المسلمين - وشاهد العالم فصولا من المذبحة على شاشات التلفزيون - وهم في حماية قوات الأمم المتحدة. ودفع الغضب العارم المسلمين إلى رؤية الحاجة إلى الفاعلية واليقظة والانتباه للشؤون الدولية. وشعر الكثيرون منهم بأنهم مهما اندمجوا وتغربنوا فإن "إسلامهم" سيحرمهم القبول بهم جزءا من المجتمع الغربي. ولسوء الحظ، لم تكن ردة فعل المسلمين تتصف بالحكمة أو المعرفة أو العقلانية المتروية. وكان هذا الافتقار إلى الاستجابة المترابطة والشاملة يعني في دلالته أن آخرين يستطيعون بسهولة تعريف الإسلام. هذه البيئة الثقافية هي التي أنتجت تفجيرات لندن عام 2005، ومحاولة تفجير الطائرات المدنية عام 2006.

لكن برز اتجاه غير متطرف من هذه البيئة أيضاً عرف الإسلام بوصفه دينا مسالما ويقبل الآخر. توضح هذه النقطة الخيارات المختلفة التي اتخذها طالبان من أصل

باكستاني في كلية لندن للاقتصاد في أوائل التسعينيات. إذ عاصر كل منهما الآخر دون أن يلتقي به، ووقف نفسه لما عده قضايا إسلامية. أحدهما، عمر شيخ، قرر المشاركة في القتال في سبيل حقوق الكشميريين، فأسرته السلطات الهندية، واشتهر بكونه طالبا درس في إنكلترا وتهيأ (وفي ذلك مفارقة ظاهرة) لارتكاب أعمال إرهابية، ثم نال سمعة سيئة بوصفه المتورط الرئيس في عملية القتل الوحشية التي راح ضحيتها دانييل بيرل في كراتشي عام 2002. الطالبة الأخرى، أمينة أحمد، ابنتي، اتبعت أساليب إسلامية أكثر تقليدية لبناء الجسور عبر المعرفة والصداقة. فبعد تخرجها، نالت شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة كيمبردج واتجهت نحو ميدان الحوار بين الأديان والفهم المتبادل بمساعدة ودعم زوجها إرسال الله خان هوتي. ثم عادت إلى باكستان للعمل الميداني، لتنتقل بعد ذلك تجاربها وخبراتها مع المجتمع الإسلامي إلى بريطانيا، حيث تركزت بؤرة اهتمامها على الجيل الشاب من المسلمين. في عام 2006، عينت مديرا لأول مركز يهودي إسلامي في كيمبردج، الذي افتتحه السير جوناثان ساكس، كبير حاخامي بريطانيا في الأول من شباط/ فبراير 2007.

اختلفت استجابتي أمينة أحمد وعمر شيخ لتحديات الحياة والعيش كمسلمين في عصر العولمة. ويبقى على أوروبا أن تقرر هل ترغب برعاية جيل مستقبلي من أمثال عمر شيخ أو أمينة أحمد، وتطوير استراتيجية مناسبة للتعامل مع الجالية الإسلامية.

لن تكون المهمة يسيرة، فحتى البلدان الإسلامية الحديثة، مثل تركيا، التي تعد نفسها أوروبية لا آسيوية، تواجه مشكلات في إيجاد توازن مناسب بين الإسلام والحداثة. وتركيا، التي يستشهد بها الغرب كنموذج للعلمانية والتقدم يجب أن تحتذي مثاله البلدان الإسلامية الأخرى، في وضع غير مستقر تتأرجح فيه بين الشرق والغرب. فقد جهدت في ظل تراث مؤسسها، كمال أتاتورك، للتشبث العنيد بالعلمانية، والنظر بثبات جهة الغرب طلبا لدعمه السياسي والعسكري والاقتصادي، في حين أبعدت نفسها عمدا عن تاريخها الإسلامي وهويتها الإسلامية طوال معظم سنوات القرن الماضي. وعلى الرغم من الزعم بأنها ديمقراطية إلا أنها قمعت بشدة أي علامات خارجية تدل على الدين – خصوصا نموذج ديوباند المتشدد – عبر حظر الحجاب مثلا، ومنع إطالة اللحى. وتتمسك الدولة بعناد بالعلمانية الصارمة.

لكـن الديـن الإسلامي بقي قويـا في تركيا، وهو يتحرك في اتجاهـات تثير الاهتمام. فقد هيمن على آخر انتخابات أجريت في تركيا حزب العدالة والتنمية وهو حزب سياسي حديـث متمسك بالهوية الإسلامية. ومنذ نهوضه، ظهـرت المحجبات في الأماكن العامة، رغـم استمرار حظر الحجاب في الدوائر الرسميـة، حيث وجد فريقنا أن هذا النظام ما زال يطبـق بأسلوب صـارم. ولم يسمح لمساعدتي، هاديا، بالدخـول إلى بعض الجامعات لأنهـا محجبة. في الوقت ذاته، فإن موجة التدين والعـودة إلى الإسلام تقلق بعض الذين ترعرعـوا في ظـل الـروح العلمانية التي سـادت في القـرن الماضي. غونسيـل رندا، وهي شخصيـة عامة بـارزة ومختصة بتاريخ الفن، رفضت مستنكـرة الظاهرة الجديدة ذات التعبـيرات الإسلاميـة. وبصفتها مؤيدة متحمسة وعنيدة لكمـال أتاتورك، دعت النزعة نحو الحجاب "سخيفـة" و"مروعة" و"مشوشة"، وانتقدت العـرب انتقادا مريرا محملة إياهـم مسؤولية إدخال هذا النوع الجديد، والغريب في نظرها، من الإسلام، عبر وسائل الإعلام ربما أو مختلف البيئات والأوضاع الروحية.

وفي حـين يسبب الحجاب بعض التوتر بوصفه رمـزا للماضي المتخلف والشكل الأكثر تشددا وتزمتا مـن الإسلام، ظهرت نزعة أخرى تطور جاذبية واسعة النطاق: الصوفية، أو مـا أدعوه نموذج أجمـر. ونظرا لقدرتها على امتصاص أي موقف روحي مع الحفاظ علـى نوع من التوازن الداخلي، تمكنـت الصوفية حتى من دمج أتاتورك نفسه، وهو الذي حظـر أي رمـز يعبر عـن الإسلام. وحـين حضرت حفلـة للرقص الصـوفي التقليدي في استنبـول، نظمتهـا "جمعية محبي مولانا المعاصرة" (تأسسـت عام 1989)، كان المكان مملـوءا عن آخره. أتى الـزوار (بمظهرهم الرقيق الطيب) من شتى أنحاء العالم، ومنها الولايات المتحدة. أما الكتيب الرسمي للجمعية فقد احتفى بـ"محمد المعظم وعلي المعظم ومولانـا المعظم (جلال الديـن الرمي)، والبطل والمعلم مصطفـى كمال أتاتورك". فعبر تجميـع أعظم الأسماء الإسلامية مع أشهر منتقدي الإسلام، أتاتورك، أظهر الصوفيون أن بمقدورهـم عكس مد العلمانية بفلسفتهـم القائمة على القبول بالجميع. وبعد أقل من قرن على وفاة أتاتورك، عاد الدين بحيوية جديدة.

الصوفيـة تظهـر حتى في صـالات المعارض التي يعرض فيهـا أحدث فنـاني تركيا أعمالهم. فسلسلة الإسراء والمعراج – التي حملت اسم رحلة النبي الليلية الشهيرة الواردة

في القـرآن – مجموعـة مدهشة في جمالهـا للفنان ايرول اكيافاس تصـور الزمن والكون والنجـوم والكواكب كرموز للرحلةالمعجزة، وتعرض في صالـة "نيوغاليري" في استنبول. ووفقـا لمدير الصالـة، أصبحت الصوفية الآن شكلا شائعا للتعبـير يحظى بالشعبية لكن يقـع خارج مجال الإسـلام التقليدي الذي ينادي به رجال الديـن المتشددون. وبطريقتها المسالمة، تحمل الصوفية الحجة على القبول والتسامح قدما إلى الأمام. هنالك مجموعة لوحات أخرى تجمع الموضوعات المثلية مع فن الخط الصوفي، لكن اتفقنا أنا والمدير على أن العديـد من المسلمين، حتى أتباع نموذج أجمر، سيجـدون مثل هذه الموضوعات مثيرة للجدل والخلاف.

في محاولـة لاستخلاص معنـى منطقي من هذه الاتجاهات في تركيـا، قضينا أمسية في حديـث مـع واحد من أبرز المفكريـن الأتراك، ميم كمال اوك. وكنـت قد التقيت اوك في الثمانينيـات حين كان شابـا يعيد اكتشاف هويته الإسلاميـة في بيئة صعبة بل معادية تقريبا للهوية الدينية. وأصبحنا صديقين، ثم قام بترجمة كتبي إلى التركية. في هذه المرة وجدته في حالة سلم ووئام غريبة مع مجتمعه، لكنه انسحب منه إلى حد ما.

الصـدام الحالي في العـالم الإسلامي، برأيه، يدور بين شكلـين من أشكال الإسلام. أحدهما يشدد على العنف والحرفية / النصية، كما يجسده بن لادن، والآخر يؤكد الحب والسـلام. وهـذا الشكل الأخير، الصوفيـة، هو "الإسلام الحقيقـي". وفي مجتمع يفتقر إلى الحـب والعـدل كليهمـا، يستطيـع رجال مثـل بـن لادن التلاعب بعواطـف المسلمين بسهولـة أكبر، خصوصا حين تهمش سمـة الصوفية المميزة القائمة علـى التأمل الذاتي والمتعمق والانسحاب من العالم المادي في الجدل الخلافي داخل الإسلام. في العادة، تفوز أكـثر الحجج تأكيدا وإقناعا بانتباه الناس. والمتصوفة لا يؤمنون بالاشتباك أو الانخراط الفاعـل في الشؤون الدنيويـة بل يفضلون الهـدوء والسكينة والتأمـل بالمقدس والإحسان والتعاطف مع الإنسانية دون رغبة شخصية في السلطة.

مـع أن ظهور الشـكل الجديد من الإسلام في تركيا مغلف بلغـة وروح العشق الصوفي والتعاطـف والتراحم، إلا أن من المتعذر رؤيته بمعزل عن سياقه السياسي والثقافي. فإلى جانـب الرغبـة في إعادة الاتصـال بالماضي، نجد نزعـة قوية إلى توكيـد الهوية التركية

وحراستهـا من شرور وآفات العولمة، كما تعبر عنها المشاعـر المعادية بشدة لأمريكا. لقد فوجئنا حين تبين لنا أن المشاعر المناهضة لأمريكا أقوى وأوضح في تركيا من أي بلد آخر زرنـاه في رحلتنا[44]. لا ريب في أن رفض الاتحـاد الأوروبي باستمرار قبول عضوية تركيا قـد أضـاف إلى هذه الموجة الكاسحة مـن المشاعر القومية التركية. وأكـدت لقاءاتنا مع الأحزاب العلمانية والإسلامية انطباعنا بأن الإسلام يعاود ظهوره واكتساحه الساحة. وفي حين يتطلع الأتراك إلى الغرب لتحقيق بعض التقدم التقاني والمجتمعي، إلا أنهم يفخرون بالصوفية التقليدية التي تحظى باحترام واسع النطاق. هذه الثورة الهادئة – البعيدة عن الصخب أو العنف أو حتى الظهور المباشر – لم يلحظها الغرب، رغم أنها تؤشر بقوة على العودة إلى الإسلام والتوكيد على الهوية، عبر الاحتجاج والاعتراض على التيارات المقلقة للعولمة، حتى إن تزيت بلبوس الحب والرحمة والإحسان والعشق الصوفي.

عـبرت الاستبيانات المتعلقة بالمثل الأعلى توجهات لافتة. فنظرا لأن أشهر المتصوفة، جـلال الديـن الرومـي، مدفون في قونيـة (بتركيـا)، لم تفاجئنا شهرتـه وشعبيته. ومن بين النمـاذج المعاصرة التي يحتذى مثالها اختارت أغلبيـة ساحقة من المبحوثين الكاتب والناشـط الصـوفي فتـح الله كولـن. وقالت طالبـة في التاسعـة عشرة (تقيـم في سكن الطالبات) إنها تشعر بأن كولن "يذكرنا بالإسلام الذي نسيناه".

يحظى كولن بمتابعة كبيرة وأتباعا كثيرين في الولايات المتحدة حيث يعيش، وذلك كما اكتشفنا حين دعيت لإلقاء خطبة افتتاحية أمام مؤتمر عقد لتكريمه في جامعة اوكلاهوما (تشريـن الثاني /نوفمبر 2006). كنت قبل ذلك قـد زرت محمد سيتين، وهو شخصية بـارزة ومهمة فيما يسمى حركة كولين في الولايات المتحـدة، وطلبت منه أن يذكر شاهده المفضـل من أقوال كولين. تلا الرجل الملتـزم دينه الذي يرتدي الثياب الغربية دون تردد: "كن متسامحا إلى حد أن يصبح صدرك وسع المحيط ويترعه الإيمان والحب للبشر. لا تترك نفسا معذبة لا تمد لها يد العون أو لا تهتم بها"[45]. رسالة كولن هي أن الإسلام لا يقتصر على الأقوال فقط بل الأفعال أيضا، وطريقة ذلك اكتشاف الحب: "لا يمكن بدون حـب أن تسمو نفس إلى أفق الكمال الإنساني.. وأولئـك المحرومون من الحب، والعالقون في شبـاك الأنانيـة، عاجزون عن حب أحد ويموتون غـير مدركين للحب المنغرس في عمق كينونة الوجود"[46].

حفظ كولن القرآن، كما يقول محمد سيتين، حين كان في الرابعة، وعندما بلغ التاسعة أصبح شيخا صوفيا استمد إلهامه من الشيخ الصوفي الشهير نفسه، جلال الدين الرومي. وبعد بضع سنوات قال له مدرسوه إنه لم يعد بحاجة للمزيد ليتعلمه وطلبوا منه أن يخرج إلى العالم ليصبح داعية. هنالك أكثر من ألف مدرسة وكلية متأثرة تأثرا مباشرا بتعاليم كولن، كما يقول سيتين، تؤكد اللاعنف والحب وتنفر من السياسة الحزبية. في استنبول، كان يجتمع في ذروة شهرته أربعون ألفا لسماع محاضراته، معظمهم من الطلاب.

في عام 1999، اتهمت الحكومة التركية كولن، كما أضاف سيتين، بالإرهاب والخيانة، مع أنه ظل يهاجم في محاضراته الإرهاب والفوضى طوال ربع قرن. فضلا على ذلك، أدان بشدة في الثاني عشر من سبتمبر 2001 الإرهابيين الذين سددوا ضربتهم إلى الولايات المتحدة. ولحسن الحظ، ساد المنطق والعقل، وأسقطت التهمة الموجهة إلى كولن، لكن غادر تركيا واستقر في الولايات المتحدة. كانت البيئة السائدة في تركيا معادية للتعاليم والرموز الإسلامية العلنية. وخلال السنوات القليلة الماضية طردت أكثر من 44 ألف طالبة محجبة من الكليات والجامعات التركية.

عندما قابلت باربرا بويد، مديرة دراسات الحوار بين الأديان بجامعة اوكلاهوما، كولن، شعرت بأنه "يشبه المسيح". وحين سألتها لماذا قارنت مسلما بالمسيح، قالت: لأن "ألق الحب يشع منه". هذه الكلمات مهمة في دلالتها لا لأنها أتت من مسيحية فقط بل لأن اوكلاهوما جزء من "الحزام الديني" في الولايات المتحدة. وكانت بروحها الكريمة تعبر عن جوهر المسيحية. استمالها كولن إلى جانبه عندما قال إن عليها ريادة تغيير المواقف في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين. ولا يمكن لي أن أتصور طلبا مشابها يأتي من أتباع نموذج ديوباند أو حتى عليكره.

كنت أحاول فهم كولن من خلال سيتين، لكنني أخفقت في تعرف جوهر شخصيته إلى أن سألت سيتين عن استجابة كولن لذكر النبي. قال إنه يبكي كلما ذكر اسم النبي ويقف إجلال واحتراما. وكما شرحت في خطبتي في اولاهوما، يفسر هذا الحب العميق الذي يكنه المسلمون للنبي سبب الغضب الشديد الذي يتملك بعضهم حين يتعرض للإهانة. طلبت من وهاب اوسال، وهو أستاذ جامعي تركي يجلس بين الحضور، أن يشرح ما يعنيه

الرسول له. وحين وقف اغرورقت عيناه بالدموع وبدأ يرتجف ويرتعد من فرط التأثر، ثم انتحب بطريقة خارجة عن السيطرة. دموعه عبرت عن كل شيء كما قال هامسا قبل أن يجلس. قالت باربرا أنها رأت الدموع في عيون الكثيرين من الحضور. وحتى الصحفيين في منطقة "الحزام الديني" اعترفوا بهذا الاستعراض العلني للعواطف الجياشة والحب للنبي. وذكرت الصحيفة المحلية أنه:

بحلول الوقت الذي وصل فيه "الميكرفون" إلى يد الرجل، فقد أو كاد السيطرة على صوته المرتجف النائح. وقال: "لا أستطيع أن أعبر إلا بالدموع". وقال أكبر أحمد إن هذا الحب للنبي يملك نفوس المسلمين جميعا ولا يمكن مقارنته إلا بحب المسيحيين للمسيح. "ويمكن للحب الجارف أن يتحول بسهولة إلى عنف كاسح"، كما قال أكبر أحمد.. وأضاف إن المسيحية والإسلام سفينتان تبحران على مسار تصادمي في عرض المحيط. والجهود التي تبذلها حركة كولن مثلا سوف "تغير اتجاه إحدى السفينتين وتمنع تصادمهما"[47].

النتائج الميدانية

اختار كثير ممن تحدثنا معهم في العالم العربي، خصوصا في قطر، يوسف القرضاوي قدوة لهم. ساءت سمعة القرضاوي في الغرب حين اكتشف المعلقون الغربيون، الذين راجعوا بدقة بعد الحادي عشر من سبتمبر الكتب التي ألفها العلماء والدعاة المسلمون، كتابا للقرضاوي يحمل عنوان "الحلال والحرام في الإسلام"، قدم فيه الحجة على أن العمليات الانتحارية التي يقوم بها المسلمون جائزة ومبررة شرعا حين تتعرض الأمة للهجوم، مثلما هي الحال في فلسطين. القرضاوي يتناول أيضا السلوك اليومي، بدءا بالنظافة مرورا بالجنسانية وانتهاء بالصلاة، وهو يناقش حاليا موضوعات مشابهة على شاشة التلفزيون. ومع أنه يقدم إرشادات مفيدة تعين مستمعيه على المستوى الشخصي، إلا أن مناقشاته تدعو المسلمين إلى العمل الاجتماعي أيضاً.

عملنا – بغرض المقارنة – على تجميع الإجابات عن أسئلة الاستبيان المتعلقة بالنماذج التي يحتذى مثالها في العالم الإسلامي حسب المنطقة. وهكذا وجدنا أن علي بن أبي طالب، الخليفة الرابع، يحظى بشعبية أكبر في جنوب آسيا مقارنة بالدول العربية، والسبب يعود

أساسا إلى حقيقة وجود عدد أكبر من الشيعة هناك. ثانيا، اختار الباكستانيون محمد علي جناح مؤسس جمهورية باكستان الإسلامية نموذجا تاريخيا يحتذى مثاله بعد النبي والخلفاء الراشدين. ثالثا، حظي الرسول وعمر بن الخطاب بأكبر قدر من الشعبية بوصف كل منهما مثلا أعلى في الهند (مثلما هي الحال في معظم البلدان الأخرى). الشخصيات التاريخية الأخرى التي حظيت بالشعبية شملت حسن البنا، ومحمد بن عبد الوهاب، وابن تيميه، الذين مثلوا التراث الإسلامي التقليدي لنموذج ديوباند وكانوا استبعاديين في مقاربتهم. حسن البنا أسس جمعية الأخوان المسلمين في مصر، ومحمد بن عبد الوهاب أسس الحركة الوهابية في السعودية، في حين ألهم ابن تيميه الذي عاش قبل قرون، الاثنين معا. من النماذج الأخرى التي يحتذى مثالها في جنوب آسيا محمد إقبال، الشاعر والفيلسوف الباكستاني، والسير سيد أحمد خان. وبرز ممثلو النماذج الثلاثة - أجمر وديوباند وعليكرة بصورة واضحة في جنوب آسيا.

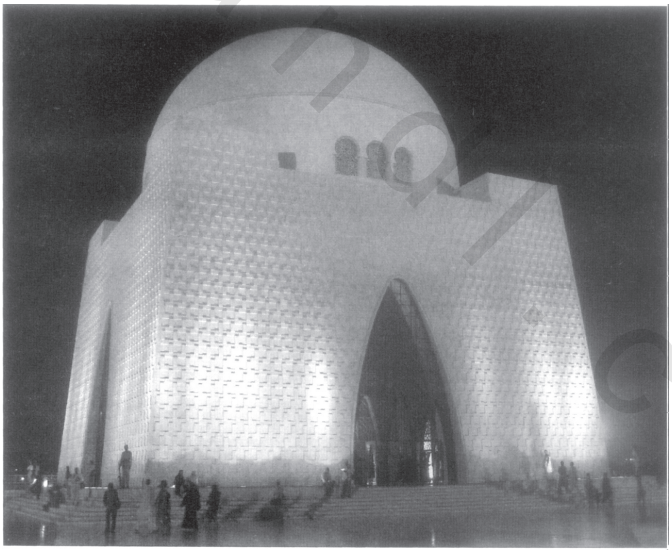

ضريح محمد علي جناح في كراتشي، الذي يستقطب عددا كبيرا من السياح، أقيم تخليدا لمؤسس أكبر أمة إسلامية في العالم، عام 1947. أدى موت جناح المبكر إلى إيجاد الظروف الملائمة للحكم العسكري، لكن رؤيته للنظام السياسي الإسلامي الحديث ما تزال تمثل تحديا لم يتحقق.

في ماليزيا وإندونيسيا، اختارت غالبية المسلمين الرسول والخلفاء الراشدين نماذج يحتذى مثالها. إضافة إلى ذلك، ظهرت إشارة واضحة إلى الشخصيات الفكرية في

التاريـخ الإسلامي، من ابن خلـدون وابن سينا والخوارزمي إلى الإمـام الغزالي والإمام الشافعـي. ولم يكـن من المفاجـئ أن نكتشف تراثـا فكريا قويا في ماليزيـا، لأن المسلمين هنـاك اعتمدوا بدرجة أكبر على النصوص والكتابات كمصادر رئيسة، مقارنة بالبلدان الأخرى.

في مصر أكدت البيانات والمعطيات التي جمعت خلال رحلة سابقة بمساعدة كريستيل كـول، وهي طالبـة في الجامعة الأمريكيـة أيضا، ما وجدناه في رحلتنـا الطويلة في العالم الإسلامـي. اختـار بعض المبحوثين أسامة بـن لادن وياسر عرفـات نموذجين معاصرين يحتـذى مثالهمـا. ومع أن كثيرا منهم ربما لا يؤيدون آراء بـن لادن عن الإسلام، إلا أنهم يشعـرون بأنه "يمثل قـوة في وجه التأثير الـذي قد يفسد الديـن". ولم يكن من المفاجئ رؤيـة جمال عبد الناصر على لائحة النماذج التي يحتـذى مثالها في مصر. فقد استطاع بشخصيتـه الكاريزمية الآسرة أن يسحر العالم العربي في الخمسينيات والستينيات، وما زالـت ذكراه تملأ بعض محبيه بالحنين إلى الماضي. هنالك شخصية أخرى استحضرت مشاعـر الاعتـزاز الوطني هي أم كلثـوم، المطربة المصرية الشهـيرة. في حين بقي النبي أعظـم مثـل أعلى ملهم من الماضي. وبدا الحجاب أكثر انتشـارا من قبل وكان ظاهرا في كل مكان.

الموضـوع المشـترك الـذي تكـرر في الاستبيانات والمقابـلات هو سوء تمثيـل وتقديم المسلمـين في وسائـل الإعلام، بـل عد "مؤامـرة". فمن بين مئـات الصور، كمـا يشتكي المسلمون، لا تختار وسائل الإعلام الغربية لعرضها باستمرار سوى تلك التي تظهر رجالا ملتحـين غاضبين أو مشاهـد العنف. فضلا على أن الكثيريـن في الغرب قبلوا تماما هذا التمثيل المغلوط والمشوه بوصفه حقيقة واقعية.

تحظـى وسائل الإعلام الآن بحضـور قوي في شتى أنحاء العـالم الإسلامي. ففي كل مدينـة، تنتصب الأطباق اللاقطة حتى على بيوت الفقراء – وتلك حالة محفوفة بالخطر وتفاقـم حرب الأفـكار. فما يختار النـاس مشاهدته يكوّن نظرتهـم إلى العالم وأفعالهم وتصرفاتهـم، في العالم الإسلامي وفي الولايات المتحدة. وبذلـك تمارس وسائل الإعلام تأثـيرا نافذا فيما يحدث فعـلا في العالم وفي وجهة الشؤون الدوليـة. وإلى جانب التقانة

ووسائـل النقل عبر العالم، عززت وسائـل الإعلام الروابط الجامعة بين المسلمين، وذلك عـبر بث الآلام التي تعانيها الأمة – حيث يظهر التلفزيـون نساء وأطفال المسلمين يقتلون كل يـوم ويمكن أفـراد "عائلة" المسلمين من تقاسم قصصهـم وحكاياتهم. وما كانت في الماضـي حوادث ومشكلات معزولة أصبحت الآن عديدة ومتلاحقة لها تفرعات وتشعبات محفوفـة بالخطر. إضافة إلى ذلـك، تراجع مستوى التفكير المسؤول فيما يتعلق بما يجب ومـا لا يجب عرضه على شاشـات التلفزيون، في خضم ثقافة سائـدة تقوم على الاندفاع والتهور والعواطف الملتهبة التي تثيرها وتهيجها العولمة.

من قطر إلى إندونيسيا، تنتشر المحطات الفضائية والإنترنت لدى الأغلبية الساحقة من المسلمين، وأبلغنا الكثيرون أن الـ "بي بي سي" و"سي ان ان" تمثلان المصدر الرئيس للأخبـار، إضافـة إلى الإنترنت. بكلمات أخرى، يستطيع المسلمـون في شتى أنحاء العالم رؤية كيـف يوصفون بأنهم "إرهابيون" و"متطرفون". وما فاقـم إحباطهم وخيبة أملهم، ندرة الإحصائيات المتعلقة بقتلاهم من المدنيين العزل في العراق وأفغانستان، وهذا يشير في دلالته إلى غياب التعاطف مع معاناة المسلمين وآلامهم. وبدلا من أن تكون نزيهة وغير منحازة بقدر المستطاع، تعد تقارير وسائل الإعلام الغربية مصابة بالخوف الرهابي من الإسلام دون داع ولا تبدي أي حساسية أو تعاطف مع المسلمين. نتيجة لذلك، ترتاب حتى الغالبية الساحقة من المسلمين "المعتدلين" الذين لا يعدون إرهابيين ولا يرغبون في إطالة الحرب على الإرهاب، في الولايات المتحدة، وتقلقهم وتزعجهم سياساتها.

ذكـرت طالبة جامعية في الأردن وقـد ملأها الغضب أن البرامـج التي قدمتها اوبرا وينفري وتناولت ثقافات العالم، أظهرت أفضل ما في كل ثقافة، باستثناء تلك السائدة في الشرق الأوسط، حيث صورت الثقافة العربية عبر مقابلة مع ضحية للعنف في الأسرة. وما فاقـم المشكلة غياب الأصوات الإسلامية التي تتحـدث عن مجتمعاتها في وسائل الإعلام الغربيـة. وهكذا تـرك المسلمون ليعجبوا بأمثال صدام حسـين ومحمود أحمدي نجاد، أو أي زعيم ينفس عـن غضبهم وحنقهم ويعبر عن إحباطهم وخيبة أملهم. فانحصر تأثير القنـوات الإخبارية دون قصد في مفاقمـة المشكلات المستعصية بين الحضارتين بدلا من ترويج الفهم المشترك والحقيقة.

ولم تجعل وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية الأمور أفضل حالا[49]. فقناة الجزيرة، التي تعد "ردا" إسلاميا على "فوكس" و"سي ان ان" وتشاهد على أوسع نطاق في العالم العربي، تعرض صور المذابح وأعمال القتل والدمار التي يتعرض لها المسلمونكما حدث في لبنان في صيف عام 2006. وهي صور لا تبث عادة في القنوات الغربية. هنالك قناة إخبارية أخرى، "العربية"، بدت أكثر اعتدالا. واللافت أن "الجزيرة" و"العربية" تبثان أخبارا متناقضة للأحداث ذاتها. ولاحظت مجلة "الايكونوميست" عام 2005 "أن من يشاهد متابعة القناتين المتباينة للهجوم الذي شنه مشاة البحرية الأمريكية في تشرين الثاني / نوفمبر على الفلوجة مثلا يظن أنهما تتابعان حدثين مختلفين: ففي حين ركزت 'الجزيرة' على الضحايا المدنيين والمقاومة البطولية، صورت 'العربية' الهجوم بوصفه اقتحام وتدمير ملاذ آمن للإرهاب"[50].

ومع أن وسائل الإعلام منحت زعماء المسلمين فرصة لشرح الإسلام للأمريكيين منذ الحادي عشر من سبتمبر، لكن تلك كانت استراتيجية قائمة على مبدأ "إما أن تصيب أو تخيب". بعضهم ظهروا على الشاشة واستخدموا لغة القوالب المنمطة والكليشهات المبتذلة، مؤكدين أن الإسلام دين السلام لكنهم فشلوا في تفسير ما يحدث فعلا في العالم الإسلامي. بل إن بعضهم أخفقوا في فهم السياق الثقافي في الغرب، ومن ثم أضافوا إلى إحباط وإذلال المسلمين.

في الوقت ذاته، تتواصل وسائل الإعلام مع الشباب المسلمين الممثلين لنموذج عليكره ويعيشون في الغرب، أو نخب الطبقة الوسطى في بلدانها، حيث يبدي أفرادها إعجابهم بالزعماء المتغربنين "التقدميين" للثقافة الشعبية الإسلامية الناشئة حديثا. ويستخدم هؤلاء، ومنهم حتى بعض النساء، التقانة للاتصال والتواصل وترويج نسخة حديثة للإسلام حسب "الموضة" الدارجة. بعض هذه النماذج يمثلها سامي يوسف، المغني البريطاني من أصل إيراني؛ وفرحات هاشمي، الداعية الباكستانية الشهيرة (انظر الفصل الثالث)؛ وأحمد داني، المغني الإندونيسي؛ وأولئك الذين ذكرناهم آنفا- يوسف إسلام، وحمزة يوسف، وعمرو خالد. وفي حين أن ممثلي الثقافة الشعبية هؤلاء معروفون في شتى أنحاء العالم بفضل العولمة، فإنهم يحظون بشعبية كاسحة في مناطقهم حيث

تـزداد الهوية الإسلامية قوة وبروزا. هنالك إحساس لـدى المبحوثين بأن صورة الإسلام والمسلمين تحددهـا الأحداث السياسية الجارية حاليا لا اللاهوت أو العقيدة، وأن نموذج ديوبانـد يبـدو مغاليا في تقييـده للشباب المسلمـين الذين يحاولون الاندمـاج في المجتمع العالمي، مع أنه يلبي حاجة المسلمين إلى الإحساس بالهوية الدينية.

يستحق أحمد داني انتباها خاصا لأن "ألبومه" باع أكثر من مليوني نسخة في منطقته، واحتلـت أغنيته "محاربـو الحب" قمة لوائح مسابقات الأغاني في شـرق آسيا، لكنه غير معـروف في الغرب. موسيقاه تستخدم أحاديث النبي وآيات القرآن لتوكيد قصص الحب والقبول بالآخر والاحترام المتبادل. أما أفلام الفيديو الموسيقية التي تصور سامي يوسف، وهـو مغن مشهور آخـر، فتعرض في المقاهي في الشرق الأوسـط، وقدم عرضا حيا خلال المؤتمر الـذي حضرناه في الدوحة. وموسيقاه تمزج الأصـوات الإلكترونية والإيقاع الممتع ومدائـح النبي. ومقاطع الفيديو التي يظهر فيها تصـوره على هيئة رجل أعمال، أو لاعب كرة قدم، أو رب عائلة في بلد عصري أو غربي.

من ناحية أخرى، لا يحتاج عمرو خالد إلى تعريف في الغرب نظرا لأن وسائل الإعلام الرئيسـة تابعته كثـيرا[51]. شعبيته في العالم العربي لا تضاهـى. إذ اختاره زهاء نصف المبحوثين في كل بلد عربي زرناه، ويبدو أن شعبيته تنبثق من تقديم الإسلام بطريقة عدت دقيقـة وصحيحـة وصادقة ومعتدلة ومتصلـة بالقضايا المعاصرة بـرأي الشباب. وتمكن أيضـا من غرس مشاعـر الفخر والاعتزاز والسعـادة في الناس لأنهـم مسلمون، وساعد في تعزيـز الإيمان بالإسلام في وقت عد معرضا للهجـوم من التغريب والعلمنة والقومية. فضلا على مساعدته في استعادة كرامة الإسلام في الأمة.

الرمـوز المعاصرة، مثل عمرو خالد، تعبر عن نقلة خفيـة ومراوغة لكن مهمة الدلالة في نموذج عليكره. فهـذه النماذج العصرية التي يحتذى مثالها والقائمة على بث مشاعر "التفـاؤل والارتيـاح" تساعد المسلمين الشباب على العيش في مجتمع عالمي مغربن مع التمسـك بالإسـلام. وتشجع المهنيـين المسلمين الشبـاب على النجاح والتمتـع بالمسرات في أوقـات الفراغ، مثل الذهـاب إلى الشاطئ والمشاركة في تحسـين أحوال المجتمع. وهي تمثـل "الصيغـة المقبولة" مـن الإسلام المصممـة خصيصى لأفـراد الطبقتين الوسطى

والعليا، الذين يتمتعون بما يكفي من الوقت لمشاهدة التلفزيون والموارد لتحسين حياتهم اليومية. إحدى الطالبات التي ترتدي الملابس الغربية وتدرس في جامعة جورج تاون في قطر شعرت بأن هؤلاء الدعاة "لا يقدمون الإسلام كدين للأوامر والنواهي، بل كأفضل طريقة للحياة. فقد وفروا توليفة حقيقية تجمع الجسد والروح. وفوق كل شيء، عمق التأثير الروحي الذي يمارسونه". أحد المعجبين بعمرو خالد تلقى رسالة منه ذيلها بعبارة "أخوك الأكبر"، وقال بحماس: "إنه لطيف ومحبب إلى النفس!".

تزامنت مثل هذه الرؤى للإسلام مع السمات المميزة للجيل الشاب والطبقة الوسطى الموسرة حديثا في العالم الإسلامي، التي استمدت مؤثراتها الثقافية من العولمة ممثلة بالإنترنت ووسائل الإعلام. في الاستبيانات التي وزعناها، اشتكى كثير من المسلمين من صعوبة التواصل مع رجال الدين وسواهم من الزعماء الدينيين التقليديين، وجميعهم على ما يبدو فقدوا الاتصال بالواقع الحالي. وخلافا لأسلوب الترهيب والتعالي الذي استخدمه رجال الدين، يستخدم هؤلاء الدعاة الشباب أسلوبا سهلا بعيدا عن التشنج على المنابر العامة أو أمام شاشات التلفزيون، ويرتدون الثياب الغربية (عوضا عن الجبة واللحى الطويلة) ويتناولون القضايا "الدنيوية" في الحياة المعاصرة.

ربما تكون هذه النسخة من الإسلام حميدة لا تضر بل تفيد المجتمع، لكنها تخفق في التصدي للمخاوف والهموم المركزية التي تشغل ملايين المسلمين وهم يواجهون الطغيان والاستبداد السياسي، والفقر، والظلم. قدم عمرو خالد سلسلة من خمسين حلقة بعنوان "صناع الحياة"، مقترحا فيها الطرق الكفيلة بتحسين أحوال العالم العربي، وأشار إلى الأعمال الصالحة المفيدة "تعليم الأميين القراءة.. ردم الحفر في الشوارع.. شراء سجاجيد صلاة جديدة للجوامع.. المشي مسافة طويلة قبل الحلقة التالية". لكن يصعب اعتبار هذه الاقتراحات موائمة للوقائع الحياتية التي تواجه كثيرا من المسلمين الذين يكافحون لتحسين ظروفهم المعيشية، وزيادة مستوى تعليمهم، والعثور على عمل، والعيش بسلام. وسوف يجد أتباع نموذج ديوباند على وجه الخصوص اقتراحات مثل رياضة المشي مسافة طويلة مجرد حيلة لإدخال الثقافة الغربية في المجتمع الإسلامي وإلهائه عن المشكلات التي هي أكثر إلحاحا.

وعلى الرغم من ذلك، يتعلم أتباع نموذج ديوباند تكييف ومواءمة التراث مع عصر العولمة. ثمة نمط آخر توضح طوال رحلتنا وتمثل في اختيار المسلمين شخصيات تجسد المقاربة السياسية البراغماتية ضمن نموذج ديوباند. شملت هذه الشخصيات زعماء وقادة اعترفوا بشرعية نظام الدولةالأمة الحديث وأرادوا المشاركة فيه لتأمين وترويج الإسلام. حسن البنا وسيد قطب (في الشرق الأوسط) وأبو علي المودودي (في جنوب آسيا)، نماذج تجسد هذه الشخصيات وهي معروفة في جميع البلدان تقريبا.

من بين قادة المسلمين، وفيهم رؤساء دول وشخصيات سياسية، كانت أشهر النماذج التي يحتذى مثالها وأكثرها شعبية أولئك الذين "وقفوا في وجه الغرب" أو إسرائيل. ومن هؤلاء محمود أحمدي نجاد، ومهاتير محمد، وياسر عرفات، وحسن نصر الله، وآية الله الخميني. وقد اشتهروا على نطاق واسع بسبب متابعتهم من وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية بوصفهم أبطالا، مع أن وسائل الإعلام العالمية تصورهم كزعماء "متطرفين" وحتى "إرهابيين".

لكن فاجأتنا حقيقة أن العديد من السوريين يعدون الرئيس بشار الأسد مثلا أعلى، تماما كما فعل العديد من الباكستانيين حين اختاروا برويز مشرف. هذان الخياران يمثلان مفارقة لافتة في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. فقد شعر السوريون بالفخر والاعتزاز لأن رئيسهم تحدى مرارا إسرائيل والولايات المتحدة، مع أن نظامه لا يعد ديمقراطيا ليبراليا، بل يتبع النهج الاشتراكي أو العلماني. وحين دعا مجلس الأمن لإجراء تحقيق في تورط سورية في اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري، مثلا، قاومت الحكومة السورية الضغوط وأنكرت صلتها بالجريمة. وعندما اتهمت الولايات المتحدة ومجلس الأمن سورية بمساعدة التمرد في العراق ورعاية الإرهاب، تحدى بشار الأسد مرة أخرى على الرغم من عدم وجود حلفاء من العرب يندفعون لمساندته ومواجهة التهديد بفرض عقوبات دولية. ويعد السوريون هذا التحدي رمزا للكرامة والفخر والشرف. تبدت هذه المشاعر في اللافتات التي شاهدها أفراد فريقنا في سوق الحميدية في دمشق، حيث كتب على إحداها باللغتين العربية والإنكليزية:

من سورية بلد السلام والمحبة إلى إسرائيل المعتدية وحليفتها أمريكا.. نحن في سورية بلد العزة والكرامة.. نرفض ديمقراطيتكم بعدما رأيناه في العراق وفلسطين وكيف تشيد

ديمقراطيتكم على أجساد المدنيين الأبرياء الذين تقصفونهم بالقنابل، وشاهدنا ماذا يحصل حين يصل الأمر إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وكيف تستخدمون حق النقض لإنقاذ إسرائيل.. وكيف تدفع أمريكا المجلس إلى إصدار قرار ضد سورية يتبعه قرار آخر مع أنها طبقت الأول.. لكن الشعب السوري لن يخاف مهما بلغت الصعوبات، وسوف يقاوم بقيادة رئيسه المحبوب بشار الأسد.

حين قالت صبية في دمشق "أحب رئيسنا حقا"، شعرنا بأننا نرى المثال البطولي ذاته المؤسس على مفاهيم الشرف والكرامة التي تتعرض للهجوم وهو يكتسب موطئ قدم في طول العالم الإسلامي وعرضه، وتحرض عليه وتثيره مواقف الولايات المتحدة.

هنالك اسم آخر برز فجأة كمثل أعلى خلال رحلاتنا - وتكرر مرارا للأسف - هو صدام حسين. ولأنني كتبت عن صدام حسين كنموذج للطغيان والاستبداد، فقد صدمت حين اختاره المبحوثون قدوة لهم. ويبدو أن المسلمين نسوا التجاوزات والأفعال الشريرة لديكتاتورية صدام حسين المشيدة على الطراز السوفييتي، التي غالبا ما استهدفت المواطنين الأبرياء الطيبين الذين عارضوا نظامه. وربما تفسر حالة اليأس التي تسيطر على العراقيين الآن، بالاقتران مع الدافع الملح للتعبير عن الغضب على الولايات المتحدة، السبب الذي يدعو الناس إلى النظر إلى عهد صدام بشيء من الحنين. أو ربما ولد التعاطف معه مشهد المحاكمة، حيث تعرض رئيس دولة مسلمة سابق للإذلال على يد حكومة نصبها الأمريكيون. وعلى الرغم من الفظائع التي نسبت إليه، فإن الكثيرين شعروا بأنه يستحق بعض الاحترام والعدالة بوصفه رئيس دولة بلغ أرذل العمر. فكرة العدالة مركزية ومهمة في الإسلام، لكن أساسها الرحمة.

تحول التلفزيون وقاعة المحكمة إلى سيف ذي حدين للأمريكيين. فحجج صدام أمام المحكمة، والدفاع عن أفعاله وانتقاد أفعال الرئيس بوش، سمعها الناس وأحدثت تأثيرا. وحقيقة اغتيال ثلاثة من هيئة الدفاع عن صدام أثارت أيضا الشكوك في أي أمل بمحاكمة صدام محاكمة حرة ونزيهة وعادلة، ومن ثم التشكيك بالمثل ذاتها التي رغبت الولايات المتحدة بترويجها في العراق. ومع أن الحكم بإعدام صدام لم يفاجئ أحدا نظرا للقائمة الطويلة من جرائمه، إلا أن الشكوك حامت حول مصداقية المحكمة التي مثل أمامها.

أمـا صور إعدام صدام، الذي نفذ خلال الساعات الأخيرة من عام 2006 والتقطها شاهد عيـان بهاتفه النقال، فقد أكدت الشكوك المحيطة بمحاكمته. وأظهر فيلم الفيديو معاملتـه الوحشية واستفـزازه الدنيء، في حين كان الجلادون يلفون الحبل حول عنقه ثم يرقصـون حول جثته. بثت الصور على شاشـات التلفزيون وعبر الإنترنت في شتى أرجاء العـالم على الفـور تقريبا، وهذا مـا ألهب الشعور بالغضـب لدى الأغلبيـة الساحقة من المسلمـين – خصوصـا السنة – الذين اعتقـدوا أن إعدام صـدام كان مسرحية عرضتها عمـدا الحكومة العراقيـة وشجعها الأمريكيون لإذلالهم. ورأى العديـد من السنة معاملة صدام مجرد استمرار لنمط الثأر والانتقام المذهبي. أما المفارقة فلم تفت على ملاحظة المعلقـين الذين سارعـوا إلى الإشارة إلى أن صدام حسين، الشريـر والطاغية في حياته، كان عزيزا وأبيا ومتعاطفا لحظة مماته. لقد حدث المستحيل. إذ حسن أسلوب محاكمته وإعدامه الأخرق صورة واحد من أسوأ الطغاة والمستبدين في القرن العشرين. حتى الرئيس المصـري حسني مبارك، وهو واحد من أشد الحلفاء الموالين لأمريكا إخلاصا، أعلن على الملأ أن صدام حسين مات "شهيدا".

ومثلمـا ذكرنا آنفـا، فإن الشكوى المشتركة التي جأر بهـا المبحوثون هي ندرة القيادة الرشيـدة في العالم الإسلامي (سوف نناقش جذور المشكلة في الفصل الخامس). وبرأي هـؤلاء، تغيـب الشخصيـات القيادية في نموذج عليكـره على صعيد العدالـة الاجتماعية والعمـل لمصلحة الجماهـير، في حين يعاني زعماء نمـوذج ديوباند ضيـق الأفق وانغلاق الذهن. وعلـى الرغم من مزايا الصوفية العديدة، إلا أن أصوات التعصب والجهل طغت عليهـا للأسـف وهي تبدو غـير ذات صلة بمشكلات عالمنا. ما يريـده معظم المسلمين هو حقوق الإنسان والعدالة والحريات المدنية في سياق إسلامي؛ لكن التبصر والتدبر والرؤية والنزاهـة والاستقامـة الضرورية لتأمين وضمان هذه الحقـوق غير متوفرة بدرجة كافية حاليا.

علمـاء الدين والزعماء الإسلاميون على وجه الخصوص عاجزون على ما يبدو عن تقـديم وجهة هادفـة للأمة أو تطبيـق مبادئ الاجتهـاد التي تتيح للمسلمـين التكيف مع ظـروف العصر المتغيرة مـع المحافظة على سلامة الدين وأصولـه. لا توجد زعامة دينية

تتميـز بروح الإبداع والإلهام التي تمكنها من التصدي لتحديات العولمة، ومساعدة الناس العاديين على مواجهة هذه التحديات. أبلغنا أحد الأساتذة في جامعة آغا خان في كراتشي أن الفجوة في القيادة الفكرية واضحة وملموسة في باكستان: "الناس يتطلعون إلى القيادة الراديكاليـة لأنهم يظنون أنها القادرة علـى إحداث التغيير. خذ على سبيل المثال تحالف الأحـزاب الدينية. صحيح أنه لا يحظـى بالشعبية وليست له قاعدة متجذرة لكنه يكتسب القوة هنا". تحالف الأحزاب الدينية في باكستان يعد بالتغيير وبالتصدي لمشكلات الأمة عـبر العودة إلى تراث وسنة النبي. هنا، وكما هي الحال في شتى أنحاء العالم الإسلامي، يتغير الموقف باتجاه نموذج ديوباند.

احتشـد المسلمون تحت ظروف الحصار والاضطهـاد في جميع المجتمعات وراء هؤلاء الزعماء الذين يجسدون المشاعر المنتشرة حاليا ويعدونهم بمستقبل يسوده العدل والأمل. ومـن نافل القول إن الزعماء الذين يتماهون بالإسلام وينادون بقراءة النصوص لتطبيق المفاهيـم الأساسيـة للدين على الأوضـاع الراهنة ينتمون إلى نمـوذج ديوباند. في الوقت ذاتـه، يعملون بطريقة فعالة وناشطـة ومثيرة للجدل على إعادة تعريـف الجهاد. اليوم، سوف يقدم العديد من المسلمين الحجة - مثلما فعل إعجاز في ديوباند - على أن المدنيين، ومنهـم النساء والأطفـال، أهداف مقبولة ومشروعة في الحـرب المفروضة على المسلمين فرضـا. وتستخدم بعض المجموعات هذه الرخصـة المستخلصة بالاجتهاد لإعادة تعريف بعض جوانب وملامح الإسلام المركزية نتيجة الشعـور بالظلم والغضب لكنها تفتقر إلى الحكمة وضبط النفس المطلوبين لتطبيق المفهوم وفقا لتعريفه الصحيح.

من بـين الجماعات التي تتبنـى الإسلام الجهادي وتمثل المسلمـين العاديين وتنطق باسمهـم، "القاعدة" التي اكتسبت سمعة سيئة مدوية في الغرب، و"حزب الله"، وحركة المقاومـة الإسلامية "حماس". ومع أن المعلقـين الغربيين يعدون هـذه التنظيمات كتلة واحـدة مندمجة، ويرونها مجرد "منظمات إرهابية قائمـة على الاختطاف والقتل"، إلا أنهـا في الحقيقـة استجابات مختلفة لأوضـاع متباينة. فـ"القاعدة" مثـلا انتقدت علنا "حماس" بسبب رغبتها في الانضمام إلى الحكومة الشرعية أو الدخول في مفاوضات للسلام.

انطلقت "القاعدة" في حقبة الاحتلال السوفييتي لأفغانستان حيث أسسها بن لادن عام 1988. وبمساعدة الولايات المتحدة، حارب بن لادن وأتباعه في سبيل تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفييتي ونفوذه. واتخذوا هيئة داود الذي يقاتل غولياث السوفييتي العملاق دفاعا عن قضية الإسلام وآمنوا بأنهم مسؤولون مسؤولية مباشرة عن هزيمة السوفييت الذين لحقت بهم خسائر فادحة، وإجبارهم على الانسحاب من أفغانستان. وحين اتخموا بالثقة بالنفس وجدوا في الولايات المتحدة ماردا جديدا يتحدونه.

ظهر "حزب الله" وجناحه العسكري المقاتل في أواخر السبعينيات، واكتسب قدرة وحيوية ونشاطا بسقوط شاه إيران وتفجر ثورة الخميني. أما جذوره فتتأصل في الجنوب اللبناني، ومعظم سكانه من الشيعة الذين دفعهم الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 إلى وضع أجندة واضحة تتمثل في طرد الجيش الإسرائيلي. واكتسب الحزب سمعة دولية سيئة عام 1983 بعد تفجير ثكنة مشاة البحرية الأمريكية في بيروت، وأدى إلى مقتل ثلاثمئة جندي منهم. وما يزال الحزب يتمتع برعاية وتأييد سورية. حسن نصر الله، الأمين العام للحزب، اختاره بعض المبحوثين في الاستبيانات التي وزعها فريقنا مثلا أعلى يحتذى. واعتمادا على الروايات وأخبار الصحف في العالم العربي والإسلامي التي تناولت "حزب الله" وحسن نصر الله بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان في صيف عام 2006، أحسب أن نسبة أكبر من المبحوثين ستختار نصر الله قدوة في أي استفتاء يجرى في العالم العربي على وجه الخصوص.

وخلافا لـ"القاعدة"، المنظمة التي تكتفي بالجهاد والقتال فقط، ينظم "حزب الله" أيضا مشاريع خيرية وتجارية تفيد المجتمع، مثل المستشفيات والمدارس ودور الأيتام، بل يملك محطة تلفزيونية فضائية. وفي غياب إدارة لبنانية فاعلة ومؤثرة، نظرا لأن لبنان يعاني انقساما عميقا في الولاءات الإثنية والمناطقية والطائفية والمذهبية، يقوم "حزب الله" عادة بتوفير الخدمات المطلوبة للشعب اللبناني، بغض النظر عن الدين أو المذهب. والأهم أن السكان الشيعة يرون في "حزب الله" تجسيدا لتنظيم بطولي دافع عن قضيتهم في أصعب الظروف والتغيرات. وحين بدا أن بيروت تتخلى عن "حزب الله" لمصلحة مبادرة سلام برعاية الغرب، شملت إخراج الجيش السوري، ملأت الآمال نفوس

اللبنانيين بتحقيق السلام، لكن آمالهم تحطمت حين قصفت إسرائيل بلدهم وحاولت اجتياحه عام 2006. أخذ "حزب الله" زمام القيادة في الدفاع عن السكان الشيعة خلال الحرب، وساعدهم على إعادة بناء بيوتهم (وحياتهم) المدمرة فيما بعد، فأعاد التوكيد على أهميته بوصفه المنظمة الأكثر إبداعا ورعاية واهتماما وكفاءة في لبنان.

تقليديا، كان التمايز بين السنة والشيعة أمرا مهما في نظر المسلمين، لكن لأن "حماس" (السنية) و"حزب الله" (الشيعي) يواجهان عدوا مشتركا (إسرائيل)، يتعاطف كل منهما مع الآخر تعاطفا كبيرا. أسس "حماس" عام 1987 الشيخ أحمد ياسين، مرشد جماعة الأخوان المسلمين في غزة، ثم اغتاله الإسرائيليون عام 2004. واكتسبت حماس المصداقية في نظر الفلسطينيين بسبب مبادراتها الاجتماعية والسياسية، إضافة إلى نشاطاتها الجهادية. في عام 2006، فازت "حماس" بأربعة وسبعين مقعدا من أصل 132 في المجلس التشريعي الفلسطيني، فأصبحت حزب الأغلبية وردمت الهوة التي خلفتها منظمة التحرير الفلسطينية، بعد أن فشلت في الوفاء بوعودها، وتشبثت بأساليبها الفاسدة والعاجزة، ولم تتمكن من حل مشكلات الفلسطينيين. ولأن إسرائيل والولايات المتحدة ومعظم الدول الغربية تعد "حماس" جماعة إرهابية، فقد رفضت قبول النتائج الواضحة للانتخابات الديمقراطية. وبدأ العديد من المسلمين يشكون في مصداقية التزام أمريكا الديمقراطية الحقيقية في العالم الإسلامي. وسأل المعلقون في المنطقة: هل تعد نتائج الانتخابات الديمقراطية مقبولة حين يوافق الغرب على المرشحين فقط؟

جمعت "حماس" علاقة عداء مرير بإسرائيل منذ البداية (ربما زادها عداء اسم المنظمة ذاته، الذي يعني في العبرية "الظلم" أو "العنف"). ويشير الإسرائيليون إلى التفجيرات وأعمال القتل والاختطاف التي ارتكبتها حماس كتوكيد على معاداتها السافرة للسامية كما عبرت عنها أدبيات المنظمة. إذ لم تكتف بالاستشهاد بكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" في ميثاقها التأسيسي عام 1988، بل هددت بـ"إزالة" دولة إسرائيل، محذرة من أن الصهاينة "بعد فلسطين يطمحون إلى توسيع حدود دولتهم من الفرات إلى النيل" (المادة 32 من الميثاق). وحين شنت إسرائيل هجوما عسكريا على غزة في صيف عام 2006، واختطفت عشرات من كبار أعضاء المجلس التشريعي التابعين لـ"حماس"، ذهبت الآمال بالحوار أدراج الرياح.

وبغض النظر عن الصورة المظلمة والمنفرة التي تبدو عليها شخصيات "حماس" و"حزب الله" في وسائل الإعلام العالمية، فإن المسلمين الباحثين عن مدافعين يذودون عن حياض الأمة يجدون كلا منهما منظمة بطولية مقارنة بالزعماء المسلمين "الشرعيين" العاجزين. الفتيات اللاتي تحدثنا معهن في سورية في آذار / مارس 2006، قلن إن حسن نصر الله يتحدث باسم العرب كلهم (مع أن هؤلاء الفتيات من السنة). شابة أردنية في الثانية والعشرين اختارت خالد مشعل، زعيم "حماس" الذي يعيش في المنفى، كمثل أعلى لأنه "ذكي ومنفتح الذهن وعصري في فكره وعمله". وعدت أحمد ياسين الزعيم الروحي لحماس (الذي اغتالته إسرائيل) "شخصية تاريخية، مع أنه لم يولد في عصر سالف. فقد سار على درب الإصلاح على الرغم من الصعوبات، وحافظ على الإسلام موردا حقيقيا له". واختارت فتاة (سنية) في سورية حسن نصر الله مثلا أعلى لأنه "منفتح الذهن ومرجعية بحد ذاته". وأضافت أخرى: "نصر الله يجب أن يمثل الإسلام وهو يمثله فعلا".

من اللافت أن المسلمين ليسوا الوحيدين في العالم العربي الذين يتطلعون إلى مثل هذه الشخصيات. إذ قالت لنا فتاة مسيحية أردنية إن نصر الله هو مثلها الأعلى بسبب "عدله وشجاعته وحمايته حقوق الأفراد". وبذلك يرتفع صوت أعضاء "حزب الله" و"حماس"، المشروع والقوي، في العالم العربي بوصفهم سياسيين أكفاء ومؤهلين، لا مجرد "جهاديين" مرتدين وخارجين على الملة. في صيف عام 2006، تعاظمت سمعة "حزب الله" في العالم الإسلامي بسبب قتاله "العادل والبطولي" أمام جيش إسرائيل الذي كان ذات مرة جيشا لا يقهر.

وبالمقابل، أثارت أفعال إسرائيل انتقادات واسعة، على الرغم من الاهتمام الحقيقي بأمنها وسلامتها -وبمستقبلها، حين نأخذ بالاعتبار عدد الذين يتحدثون عن "القضاء عليها" في الشرق الأوسط. صحيح أن أسر اثنين من جنودها قد أشعل الأزمة، إلا أن "مغامرتها الصيفية" أدت إلى سقوط العديد من الضحايا المدنيين وساهمت في رفع مكانة حسن نصر الله وأحمدي نجاد ليصبحا نجمين لامعين في العالم الإسلامي. وتقاسمت الولايات المتحدة اللوم، بسبب دعمها العلني والسافر واللامحدود لإسرائيل.

وهكـذا، يبـدو أن تعريـف "الإرهابي" في الحـرب على الإرهاب يعتمـد على الطرف الذي تدعمه. فالأمر كله يتعلق بالمنظور. هذه النقطة شرحها بأسلوب فعال ومؤثر القديس أوغسطـين، أحـد أعظم اللاهوتيـين المسيحيين، حـين علق على المواجهة بـين الاسكندر المقـدوني وأحد القراصنـة الأسرى: "حين سأل ذاك الملك الرجـل عما يقصده باحتلال البحـر وامتلاكـه، أجابـه القرصـان بجرأة واعتـزاز: 'مـاذا تقصد أنـت باحتلال البر وامتلاكـه؛ لأنني أفعل ذلك بسفينة صغـيرة أدعى لصا، في حين تفعل أنت ذلك بأسطول عظيم فتدعى إمبراطورا"[52].

كيف يعرف الزعماء المسلمون الإسلام

بعـد اجتيازنا نقـاط التفتيش والحواجز الأمنية المشـددة، جلسنـا ننتظر في غرفة الاستقبـال الرسميـة للرئيس برويز مشرف في راولبنـدي، في قاعدة عسكرية تبعد زهاء ساعـة عن إسـلام أباد، لإجراء مقابلة معـه (في آذار / مارس 2006). لاحظت وجود لوحتين معلقتين على جدران الغرفة، لمحمد علي جناح ومحمد إقبال، وتساءلت هل لاحظ فريقـي المفارقة الكامنة في ديكتاتور عسكري يستمـد إلهامه من ميراثهما الديمقراطي. انشغـل الطالبان الأمريكيان بدفاتر الملاحظات والأقـلام في انتظار الرئيس. قبل أسبوع فقـط، شاهدا الرئيـس مشرف على شاشة "سـي ان ان" يدرب الرئيـس بوش على لعب الكريكيت في الملعب الرئاسي بإسلام أباد.

دخل الرئيس مشرف مرتديا حلة رمادية وربطة عنق حريرية ووراءه ضباطه ببزاتهم الرسمية. جلسنا معا على أريكتين من المخمل، قال بود: "أرجوك، اشرب قدحا من الشاي، يـا صديقي أكبر". بـدأت اللقاء بسؤاله عن مثله الأعلى. قال إنـه معجب بالنبي أولا، ثم محمـد علـي جناح، ثم نابليون بونابـرت، بهذا الترتيب. كان مـن الصعب معرفة السبب الـذي دعـاه إلى اختيار الثالث. فنابليون الـذي عد نفسه قيصرا رومانيـا، أراد أن يكون أكثر من قائد عسكري يأتي لإنقاذ وضع سياسي يائس، وتمثلت رسالته الكبرى في إجراء إصلاحات اجتماعية واسعة النطاق. مشرف ربما يشعر أيضا بأن قدرهما متشابه، بوصفه رئيسـا لواحدة من أهم الدول الإسلامية على المسـرح العالمي (والوحيدة النووية بينها). لكنه ليس متفقها في الدين ولا يتمتع بتفويض شعبي عبر عملية ديمقراطية ليتحدث باسم

الأغلبية الساحقة من المسلمين. لكن بوصفه القائد العام للجيش، يمتلك القوة العسكرية لدعم استيلائه على الرئاسة والرسالة السياسية.

حين أجاب عن سؤالي المتعلق بمقاربة الإسلام للحداثة الغربية، أشار مشرف إلى ثلاث نقاط أساسية. أولا، أكد هويته الإسلامية: "قد لا أكون مسلما نصيا متشددا، لكنني مسلم. وأعتقد أن الإسلام منسجم مع الحداثة".

ثانيا، يجب على المسلمين ألا يكونوا متغربنين ليصبحوا حداثيين. أي يجب عليهم ألا يتصرفوا مثل الغربيين - يتبنون القيم الغربية، ويرتدون الملابس الغربية، أو يتحولون إلى علمانيين كالغربيين: "لدينا ثقافتنا؛ لدينا تاريخنا. ونحن نعتز بهما. يجب أن نساير الحداثة ونكون حداثيين، وهذا يعني الحكم المدني، والنظام الإداري السديد، والعدالة، ورفع مستوى التعليم، والديمقراطية. هذه الجوانب والمقومات كلها سمات مميزة للتحديث، وبمقدورنا أن نتبناها ونبقى مسلم ". وأعاد التوكيد على أن "الإسلام لا يتناقض مع الحداثة". ثم فسر كيف يتصل ذلك بدوره، حتى في الحرب على الإرهاب: "لقد وضعت روحي على كفي. تعرضت لمحاولات اغتيال، لكنني أؤمن بما أفعله لأنه في مصلحة باكستان. وهو مفيد أيضا لأمريكا والغرب، لأن من مصلحتهما السيطرة على الإرهاب". لكنه شدد على أن مصالح باكستان لها الأولوية في تفكيره.

ثالثا، يمكن لباكستان أن تؤدي دورا حيويا ومركزيا في النهضة الإسلامية: "نحن زعماء العالم الإسلامي. نحن القوة النووية الإسلامية الوحيدة. عدد سكان باكستان يبلغ مائة وستين مليونا. وضعنا الجيوسياسي يجعلنا على قدر حاسم من الأهمية لفهم العالم الإسلامي. لدينا تاريخ كنا فيه قادة العالم الإسلامي على صعيد الأفكار (الجديدة). لذلك كله، لا يمكن تجاهل باكستان".

اكتشفت في هذه الرحلة أيضا أن باكستان تحركت بأسلوب لافت نحو التعبير العلني عن هويتها الإسلامية، حتى من أولئك الذين يتحدثون عادة، مثل مشرف، عن الإسلام الليبرالي والعلماني. روى لي مشرف حكاية مثيرة لتوضيح وإثبات حماسته وحميته الدينية. فحين زار مكة، خص بشرف التسلق إلى أعلى الكعبة، فنظر من هناك إلى الحجيج وهم يطوفون حولها، وهتف بأعلى صوته: "الله أكبر". فرد عليه الحجيج بالهتاف: "الله

أكبر". أدى فريضة الحج ست مرات لترسخ أوراقه الثبوتية الإسلامية كما أخبرني. ومع أن نقاده يلقبونه ازدراء بـ"بوشرف" – مستنسخا من الرئيس بوش! – إلا أنه يقدم الحجة على أن التحديث لا يعني التخلي عن القيم الدينية والمعايير الثقافية؛ وفي الحقيقة، بقيت جذوره الدينية متينة ولم يصبح متغربنا وعلمانيا كما يزعم بعض منتقديه. وبدا مشرف المعتدل، إيديولوجيا وثقافيا، متشبثا بنموذج عليكره، ويحاول جاهدا التواصل مع نموذج ديوباند الذي يبرز ويهيمن على الساحة.

أكبر أحمد في مقابلة أجراها مع الرئيس الباكستاني برويز مشرف عام 1999. أصبح مشرف حليفا رئيسا في الحرب على الإرهاب بعد الحادي عشر من سبتمبر.

وفيما يتعلق بالرأي السلبي في الغرب عن المدارس الدينية، لاحظ مشرف أن الإصلاحات التعليمية تجري على قدم وساق: "نحن ندخل الموضوعات والمواد غير الدينية، وبذلك ندرّس الدين ومقررات مثل الجغرافيا والتاريخ والأديان الأخرى. حتى الكمبيوتر ندرب عليه – في المدارس الدينية!". وحين سألته لماذا يختار عدم إغلاقها، كما طالب العديد من الغربيين، أجاب: "يظنون في الغرب أن المدارس الدينية تعني معسكرات الإرهابيين. لكن لا تضم جميع المدارس الدينية متطرفين أو متشددين يتبنون العنف. صحيح أن بعضها يضم أمثال هؤلاء لكن ليس كلها. لدي مليون طالب في المدارس الدينية. فإن أغلقتها سيكون لدينا مليون شاب في الشوارع. لذلك، ألجأ إلى سبيل الإقناع والنقاش

لجلبهم إلى التيار الغالب، ومساعدتهم على رفع مستوى المعايير والاندماج مع أغلبية المسلمين".

يبدو مشرف ملتزما التزاما حقيقيا أفكار التغيير ومعالجة مشكلات باكستان، لا مجرد محاولة إرضاء الغرب. قال مؤكدا: " اسمع، لدي العديد من المنتقدين في باكستان يقولون إني ممالئ للغرب. لكنني ببساطة أحاول أن أقرب أمتي من رؤية مؤسس باكستان محمد علي جناح، الذي آمن بالمجتمع الحديث الديمقراطي القائم على حقوق الإنسان وحقوق المرأة. الأمريكان أصدقائي مدة قصيرة. ونحن نتبادل العون والمساعدة، لكن ليست لدينا ترتيبات أخرى فيما وراء ذلك".

يبدو أن تحقيق تسوية تصالحية بين نموذج ديوباند وعليكره مع عدم الظهور بمظهر "الخاضع" للغرب، حسب فهم مشرف، مهمة شاقة إن لم تكن مستحيلة. إلا أنه تدبر أمر هذا التوازن بقدر من النجاح منذ الحادي عشر من سبتمبر. لقد اختاره العديد من المبحوثين المسلمين داخل وخارج باكستان قدوة أو رئيسا جيدا في العالم الإسلامي. وأبدوا إعجابهم بقدراته التفاوضية تحت الضغوط، خصوصا مع وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك كولن باول، الذي اتصل بمشرف عشية غزو أفغانستان وعرض عليه خيارا واضحا: إما أن تكون معنا أو علينا. أما معاون باول، ريتشارد ارميتاج، فأوضح دون لبس لرئيس استخبارات مشرف أن الولايات المتحدة ستقصف باكستان وتعيدها إلى "العصر الحجري" إن لم تدعم الحرب على الإرهاب، وفقا لمذكرات مشرف[53].

حوصر مشرف في إسار معضلة موجعة. فقد كانت باكستان تدعم الطالبان وتساعدهم على النمو كحركة. إذ تطلبت سياسة باكستان الخارجية "عمقا استراتيجيا" يمكن لأفغانستان أن توفره في حالة نشوب حرب مع الهند. ولذلك سيتطلب التخلي عن طالبان الآن انعطافة بزاوية 180 درجة، قد لا تستطيع الدولةخصوصا الجيش - القيام بها بطريقة سلسة. لكن دوافع مشرف الغريزية للحفاظ على الذات ربما أنقذت باكستان في تلك اللحظة من مجابهة مباشرة مع الولايات المتحدة، التي كانت بعد الحادي عشر من سبتمبر كثور هائج مستعد للهجوم على أي شيء يقف عثرة في طريقه. تعامل مشرف

مع الوضع بهدوء، واستخدم موقعه ليبرز كحليف رئيس في الحرب على الإرهاب. ولذلك، اختاره عدد من المبحوثين حتى خارج حدود باكستان مثلا أعلى.

ومع ذلك، يفتقد مشرف الشعبية لدى أتباع نموذج ديوباند، الذين انتقدوه مرارا وتكرارا وحاولوا اغتياله مرتين. وخلال زيارتنا إلى إسلام أباد، كان خطباء المساجد ينتقدون مشرف علنا، وبعضهم على بعد ميلين فقط من القصر الرئاسي. والمظاهرات المناهضة له متكررة وتزداد باطراد. برأي مشرف، تعد هذه النشاطات نتاجا لأتباع نموذج ديوباند المتشددين، وهم تقليديا المفسرون الأوسع نطاقا للإسلام في باكستان، ولا يفعلون سوى التوكيد على الطقوس الفارغة. وكما قال: "المتعصبون هم من يفسر الإسلام حتى الآن".وتفسيراتهم المتزمتة تفجر خلافات ونزاعات تؤدي إلى العنف داخل باكستان. وأعمال الشغب الأخيرة بين الشيعة والسنة في المناطق الشمالية، كما لاحظ، بدأت لأن جماعة اعترضت على طريقة جماعة أخرى في الصلاة، حيث وضع أفرادها أيديهم على صدورهم. قال لي مشرف: "علينا تجنب هذا النوع من الإسلام. ما يدافع عن الإسلام هو التقدم والتراحم والإحسان، وفي سبيل ذلك يجب على علماء الدين المشاركة بحيث يبدأ الناس العاديون في الشوارع تقدير ماهية الإسلام الحقيقية". وهو يتفهم الحاجة إلى إعادة تفسير الإسلام من داخل التراث والتقاليد، ومعالجة مشكلة الجهاد واستخدامه، مع أنه لم يذكر ذلك صراحة[54].

في الحقيقة، تعد مبادئ العديد من الكتب التعليمية في المدارس الدينية أبعد ما تكون عن روح التراحم والتعاطف والتسامح كما بشر بها الفلاسفة والمفكرون المسلمون. وتشير تقارير أصدرتها مجموعة "فريدوم هاوس"، وهي هيئة مراقبة مستقلة في الولايات المتحدة، إلى أن الكتب المدرسية التي تستخدم في بعض بلدان الشرق الأوسط وتوزع في شتى أرجاء العالم الإسلامي، وتصل إلى المدارس الدينية في باكستان وغيرها، تحتوي على عبارات مثل "اليهود قردة؛ والخنازير هم النصارى الكفار"[55]. ويتلقى الطلاب التشجيع أيضا على أبلسة المسلمين الآخرين، كالشيعة والمتصوفة، الذين أطلق عليهم اسم "المشركين" بهدف إدانتهم بوصفهم منحرفين ضلوا سواء السبيل. إن هذه الكراهية المتضمنة في تدريس ومناهج بعض المدارس الدينية تترجم بسهولة إلى دعوة للتعصب الديني وحتى العنف ضد من يعدون مسلمين منحرفين أو ضالين.

النسخة الاستبعادية من الإسلام التي تقصي الآخر وتستبعده تلقى استجابة سلبية من المسلمين خارج العالم العربي، وهذا ما أوجد ظاهرة "العداء للعرب" المتناغمة مع المشاعر المناهضة لأمريكا والمعادية للسامية. ويعبر المسلمون من غير العرب - على اختلاف طبقتهم، وجنسهم، وعمرهم - عن استيائهم وسخطهم على ما يعدونه غطرسة العرب حين يرغبون في فرض نسختهم الخاصة من الإسلام على الآخرين والادعاء بأنهم يملكون الإجابات كافة. أما الاحترام الواسع النطاق للعرب لأن القرآن نزل بلغتهم والنبي منهم، فقد ضعف وتراجع. بعد خطبتي في جامعة جاكرتا، شن ترميزي طاهر، وزير الأوقاف الإندونيسي السابق ونموذج الدماثة والتهذيب، هجوما كاسحا على "إسلام العرب" المنبت الصلة عن كل ما قلته. قال غاضبا: "صحيح أن النبي عربي، لكن عاصره عرب أشرار مثل أبي لهب وأبي جهل. نحن نرفض إسلام صدام حسين". وفي ثورة غضبه العارمة كان يردد صدى ما قاله أمامنا وزير في لاهور على مأدبة غداء: "الباكستانيون أفضل إسلاما من العرب من كل ناحية - لا بل أفضل إنسانية من كل جهة". المسلمون الهنود المتعلمون ينظرون أيضا إلى الشرق الأوسط فلا يجدون فيه سوى "العرب المهزومين والضعفاء"[56].

في الوقت ذاته، وجدنا مؤيدين لـ"إسلام العرب". في باكستان، يعبر الكثيرون عن إعجابهم بالملك فيصل بسبب ارتباطه وتعاطفه العلني مع الأمة الإسلامية. ومع أن الحجاب غريب عن التراث الثقافي الباكستاني، إلا أن نهوض الهوية الإسلامي يحث مزيدا من الفتيات على تقليد السعوديات في الزي، لأن السعودية "الزعيمة الحقيقية" للعالم الإسلامي. وهذا بدوره يستدعي مزيدا من التوكيد على الوهابية السعودية. فوفقا لتفسيرها الحرفي/ النصي للقرآن، يمكن لكل مسلم أن يعبد الله مباشرة دون حاجة إلى وسطاء، مثل الأولياء أو الصالحين؛ وهي تفرض قيودا صارمة على النساء في بعض المواقع، بل تنتقد حتى الغلو في احترام وإجلال النبي كما يفعل بعض المسلمين. في هذه البيئة بالذات ترعرع بن لادن.

حياة بن لادن في سن الرشد تمنحه المصداقية في نظر العديد من المسلمين. فهو ابن مليونير سعودي، وظل يعيش حياة تبطل وترف إلى أن دخل الجامعة في جدة.

هناك، تعرف بمحمد قطب، شقيق سيد قطب، مؤلف كتاب "معالم في الطريق"، النص المعياري الذي استخدمه لاحقا بعض المتطرفين لترويج تفسيرهم للإسلام، وسرعان ما أصبح بن لادن شخصية تسعى لأداء دور على المسرح العالمي. وبعد إدراكه أن المعركة في سبيل حرية أفغانستان في الثمانينيات تمثل معلما لأزمة عالمية مهمة للمسلمين، شد الرحال إلى جبالها. سنوات بن لادن في أفغانستان - مع إقامة مؤقتة في السودان - زودته بالمعرفة المتعمقة بالسياسة القبلية وبمنصة انطلاق لشن حربه على الولايات المتحدة. واستطاع اعتمادا على فهمه الذكي لآليات عمل المجتمع القبليفهو متحدر من عائلة يمنية تنتمي إلى مجتمع قبلي وألف منذ الطفولة السياسة القبلية السعودية - تعزيز وتقوية صداقته السياسية مع الملا عمر، الزعيم المنعزل لحركة الطالبان الناشئة في قندهار، عبر المصاهرة. وهكذا تمكن من الحصول على إذن مباشر للدخول إلى صميم السياسة القبلية الأفغانية، والتمتع بولاء الأفغان. وحتى بعد أن طرد من تورا بورا، وجد الدعم والتأييد من القبائل على طول الحدود الباكستانية - الأفغانية. لربما كان بن لادن "عربيا" لا ينتمي إلى الأفغان، لكنه عبر المصاهرة أصبح جزءا من شبكتهم القبلية.

يمثل بن لادن نقطة التقاء عدد من التيارات في بحر العولمة. فقد جعلته وسائل الإعلام الغربية أشهر رجل على الكوكب الأرضي، مضيفة بذلك إلى مكانته بين المسلمين. فتسجيلاته الصوتية التي تبث على مختلف المحطات التلفزيونية العالمية، أظهرت قوة وسطوة التقانة والتأثير الذي يمكن أن تمارسه على المجتمع الدولي. والأهم أن زعامة بن لادن أظهرت تغيرا ملحوظا في قواعد اللعبة التي خضعت ذات يوم لسيطرة زعماء الدول - الأمم. فضلا على ذلك، حول عجز القوة العظمى، بكل ما تملكه من تقانة وموارد، عن القبض على "الإرهابي رقم واحد في العالم" بعد مرور عدة سنوات على الحادي عشر من سبتمبر، بن لادن إلى أسطورة خرافية حية.

لكن هناك العديد من المنتقدين لبن لادن في العالم الإسلامي أيضا. ويعود جزء كبير من السبب إلى أن الغرب، كما يقول الكثيرون، ينفر من الإسلام ويكره قبول المسلمين. والمسلمون الذين قابلناهم، خصوصا في العالم العربي، نأووابأنفسهم عنه أمام الملأ.

ومثلما عبر طالب أردني في التاسعة عشرة يدرس في كلية الشريعة: "الإسلام دين التسامح، ولا يشبه المسلمون كلهم بن لادن أو غيره من المتطرفين. لدينا مفاهيم في ديننا وروابط متينة مع نبينا الذي يجسد الإسلام الصحيح. المسلمون بحاجة إلى إثبات أنفسهم في هذا العالم وعليهم أن يحكموا بدين العدل والمساواة".

في نظر آخرين، لا يخشى بن لادن من التعبير عن مشاعر المسلمين "الحقيقيين" أو "العاديـ "، التي تحول مراوغة أو جبن العديد من الحكام دون التعبير عنها. لكن يجب الإسراع إلى إضافة حقيقة أن العديد من المسلمين الذين يتعاطفون مع بن لادن بالمعنى الواسع والعام للكلمة لا يؤيدون نشاطه الأكثر دموية وعنفا. ووفقا لاستفتاء أجراه معهد غالوب منذ مدة، عبر 70% من المستفتين عن غضبهم على أمريكا، لكن لم يبرر سوى 7% هجمات الحادي عشر من سبتمبر. في الوقت ذاته، تجتذب انتقادات بن لادن الرئيسة للغرب المسلمين في شتى أنحاء العالم[57]. فقد عارض وجود الجنود الأمريكيين في البلاد الإسلامية، وأيد باستمرار القضية الفلسطينية، وانتقد الدمار الذي ألحقه الأمريكان بأفغانستان والعراق. واتهمهم أيضا بتدمير وتخريب "الطبيعة بنفاياتكم الصناعية وغازاتكم، مقارنة بأي أمة أخرى في التاريخ. وعلى الرغم من ذلك ترفضون توقيع اتفاقية كيوتو لكي تضمنوا أرباح شركاتكم وصناعاتكم الجشعة". وبعد أن تطرق إلى الوضع السياسي في الدول الإسلامية، حذر الولايات المتحدة طالبا منها "وقف دعمكم للزعماء الفاسدين في بلادنا. وعدم التدخل في سياستنا وأساليبنا ومناهجنا التعليمية. اتركونا وشأننا وإلا انتظرونا في نيويورك وواشنطن"[58].

يستحضر بن لادن مرارا خسارة "كرامة وشرف" المسلمين، وهذا ما يردد المسلمون صداه في كل مكان. ولم يكن من المفاجئ أن يطلق إعجاز في ديوباند لقب "شيخ" على أسامة بن لادن، بل إن بعض طلاب جامعة عليكره أشاروا إليه بالقدر نفسه من الحماس والإجلال. والعديد من الذين قابلناهم ذكروا إخلاصه وتفانيه في خدمة أمة الإسلام لأنه تخلى عن أسلوب حياته المترف ليقاتل دفاعا عن الإسلام في تلال وجبال أفغانستان المقفرة ووهب ثروته وماله في سبيل القضية. وشاهدنا طوال رحلتنا أدلة تثبت شعبية شخصيته الآسرة. فهو يعد الآن بطلا عالميا إن لم يكن أسطوريا للمسلمين المستضعفين في

كل مكان. أخبرني راندولف بيرسود، الأستاذ في الجامعة الأمريكية (الغوياني الأصل) أن 45% من سكان غويانا أتوا من جزر الهند الشرقية - 10% منهم مسلمون - ويواجهون توترات وأعمال شغب عرقية. وبعد عدد من الاغتيالات التي استهدفت غالبا القادمين من جنوب آسيا، رأى بعض الناس في غويانا يعلقون صورة بن لادن تطوقها أكاليل الغار في بيوتهم. وهكذا أصبح بن لادن شخصية طلسمية حتى في أقصى أصقاع الأرض وبين غير المسلمين أيضا. وخلال مباراة في كرة القدم جرت بين المكسيك والولايات المتحدة عام 2004، هتف ستون ألفا من المشجعين المكسيكيين بصوت واحد "أسامة!" فثار غضب كثير من الأمريكيين.

لكن يجب الحذر من التعميم. ومثلما كررت سابقا، لا تعد نماذجنا الثلاثة سكونية جامدة ولا كتيمة صامدة. هنالك شخصية ماليزية بارزة تجسد مثالا يوضح مدى وتعقيد نماذجنا، وهي تنتمي في هذه الحالة بالذات إلى نموذج ديوباند.

أنور إبراهيم، نائب رئيس وزراء ماليزيا بين عامي 1993-1998، كان من المتوقع أن يخلف مهاتير محمد في رئاسة الوزارة. لكن ساءت العلاقة بينهما، وحكم على أنور بالسجن خمسة عشر عاما بتهم ملفقة. في الوقت ذاته، شنت حملة مغرضة لتلطيخ سمعته وإطلاق تهم عليه تراوحت بين الفساد السياسي والمثلية. لكن أطلق من سجنه بعد ست سنوات، وضع خلالها في الحبس الانفرادي وتعرض للضرب مرارا. ومنذ أن خرج من السجن أصبح خطيبا مفوها يحظى بالشعبية في الأوساط الأكاديمية الدولية، من اكسفورد إلى واشنطن، حيث يعمل الآن أستاذا زائرا في جامعة جورج تاون.

اتبع أنور إبراهيم ومهاتير محمد جيل الزعماء الماليزيين الذين وصلوا إلى السلطة بعد الاستقلال وذلك بتحدي ما جرى قبلهم. فقد حاولوا تغيير جوهر وشكل السياسة عبر إضافة هوية إسلامية مركزة إليها. وهذا ما يجعلهم زعماء يتمتعون بمحبة الجماهير لا في بلادهم فقط بل في العالم الإسلامي الأوسع أيضا. وأظهرت استبياناتنا أن كثيرا من المبحوثين خارج ماليزيا اختاروا مهاتير محمد نموذجا يحتذى مثاله.

سمعت الكثير عن أنور إبراهيم ودفعني الفضول إلى لقائه لأنه يمثل نموذج ديوباند مع انعطافة سوسيولوجية لافتة[59]. فهو الواجهة الحديثة للتراث ذاته. ولم يخب ظني.

أنـور إبراهيم شخص ودود ومتيقظ ومطلع ويشع منـه السحر الماليزي ويتكلم الإنكليزية بطلاقـة. عندمـا التقيته أول مرة على مائدة غـداء في واشنطن، قال إنـه قضى سنوات سجنـه في الحبس الانفـرادي يقـرأ كتبي عـن قبائـل البشتون علـى الحـدود الأفغانية – الباكستانيـة، وذكر على وجـه الخصوص كتاب "الاقتصاد والمجتمـع البشتوني"[60]. دفعتنـي ملاحظاته إلى التفكير العميق. فقـد تأثرت بها الزعيم المسلم الذي يختار كتابا مغمورا عن الأنثروبولوجيا ليقرأه في محنته، ويبدي إعجابا واضحا به.

لربمـا يبـدو أنور إبراهيم أول وهلـة مناسبا لنموذج عليكره كمـا نفهمه، لكن كلماته وأفـكاره توحـي بتفسير آخر[61]. فهـو مفكر متمكن واضح الذهـن ومتضلع من الإسلام الأصيـل. وفي الحقيقة، يعد واحدا من أبرز ممثليه، حيـث لم يكتف بالحديث عن أفكاره بـل حـاول تطبيقها حين كان مسؤولا عـن وزارتي المالية والتعليـم في ماليزيا. وتمكن من أن يظهـر بطريقة عمليـة كيف يقدر مجتمع إسلامي تقليدي لا علـى التكيف مع الحداثة – بـكل فنادقها وبنيتها التحتية وصناعتها السياحيـة وتقانتها.. الخ – بنجاح وحسب، بل في مقاومـة الموجة الكاسحة للعولمة والغربنـة أيضا. ولأنه كان يعد واحدا من مهندسي ما دعـي في العقود الأخيرة من القرن العشرين بالنهضة الآسيوية، فقد حظي بمصداقية لا كمفكر إسلامي فقط، بل كزعيم عملي قادر على إقامة توازن بين الماضي والحاضر[62]. وأصبح يجسد نموذج ديوباند الناجح والعصري في السلطة.

نجـاح أنـور إبراهيم وأسلوبـه الاستعراضي إلى حـد ما جعلاه عرضـة للهجوم من الطرفين: وجده المسلمون التقليديون، خصوصا أتباع نموذج ديوباند، مبالغا في الاقتراب من الغرب والتكيف معه، في حين عده المنتقدون الغربيون مغاليا فيموقفه الإسلامي (أحد المستشاريـن في واحدة من أبرز المؤسسات الاستشارية في واشنطن مال نحوي على مائدة الغـداء وهمس ملاحظا بعد أن سمع أنور إبراهيم يمتدح فضائل الديمقراطية والحريات المدنية ضمن الإطار الإسلامي: "للأسف لم يدافع عن هذه الفضائل حين كان في السلطة وفي موقع يؤهله لذلك، ولم يكتشفها إلا الآن في واشنطن").

خـلال زيارة أنـور إبراهيم قبيـل عودته إلى كوالامبـور في تشرين الثـاني / نوفمبر 2006، تحـول حديثنا إلى النماذج المعاصرة التـي يحتذى مثالها. لكن خياراته فاجأتني

وأبهجتني في آن. اختار محمد علي جناح، "القائد العظيم" كما أضاف مستخدما اللقب الذي يستخدمه المعجبون به. ثم قال إن جده كان يحتفظ بصورة ملونة لجناح في غرفة الجلوس في منزله بإحدى قرى بينانغ في الخمسينيات. ومن اللافت أن أنور إبراهيم كان معجبا بمحمد إقبال ومحمد علي جناح كليهما، وكثيرا ما ذكرهما في محاضراته العامة كنموذجين يحتذى مثالهما. أفكار إقبال كما ذكرنا آنفا، تنتمي إلى النماذج الثلاثة كلها، لكن أفكار جناح تعبر عن نموذج عليكره.

مع نضج تفكيره، يتجه أنور إبراهيم بصورة واضحة نحو تفسير استيعابي أوسع وأكثر شمولية للإسلام. وبوصفه غير عربي، يسارع إلى الإشارة إلى أن المسلمين، خصوصا في العالم العربي، بحاجة إلى تقدير قيمة الزعماء غير العرب مثل محمد علي جناح، ومن ثم يستفيدون من المدى الكامل للثقافة الإسلامية. وحين طلبت منه اختيار أعظم مثل أعلى في التاريخ، أجاب دون تردد: النبي الذي "لم يكن معلما روحيا عظيما وحسب بل جسد الإحسان وطلب العلم".

ما وجدته مؤثرا فيما يتعلق بأنور إبراهيم رحلته الشخصية. فقد كان زعيما ناجحا جدا في الحياة العامة واجه نائبة صادمة ومهينة، لكنه تمكن من السمو على ذكريات ماضيه برمته، والوصول إلى مرحلة الهدوء الداخلي، الذي وجد التعبير عنه في مسلكه، وتفكيره، واستجاباته. الآن، وهو يعيش حالة السلام مع النفس، بلغ أنور إبراهيم كما شعرت عتبة اكتشاف نموذج أجمر.

تحديد مواقع وأماكن الشخصيات الروحانية والصوفية أشد صعوبة من الشخصيات الإسلامية المرئية والمسموعة التي تتبع نموذجي ديوباند وعليكره. ثمة سؤال طرحه بعضهم: هل يوجد المتصوفة - الذين يمثلون نموذج أجمر - في عصرنا خارج تركيا وتأثيراتها الثقافية؟ الجواب، بلى، وحالفني الحظ في مقابلة أحدهم في عمان. الشيخ نوح كيلر شيخ صوفي أتى من الولايات المتحدة قبل ثلاثة عقود، حيث اكتشف الإسلام وهو في القاهرة لكن أتباعه كثر في العالم العربي[63]. تركز حديثه معي على الروح، التي لها بداية لكن ليس لها نهاية. النبي، برأيه، هو المعيار النهائي للسلوك الإنساني، الذي يرفع مكانة المسلمين إلى درجة أعلى من غيرهم ويجعل الإسلام دينا متفوقا على ما عداه.

أمـا أفضل طريقة لحـث الناس على اتباع المعيار فهي المثل الصالـح، لا الضغط والإكراه أو النشـرات الإعلامية. ازدرى الشيخ علماء الديـن التقليديين من أتباع نموذج ديوباند، الذين دعاهـم بالسلفيين. ووصفهم بأنهم "ملالي اللحى الشعثاء"، في إشارة إلى اللحى التـي يبالـغ في إطالتها بعض رجـال الدين (للشيخ لحية صغيرة مشذبـة). وما أقلقه هو أذهانهـم المغلقة وميولهم المزاجية السيئة: "لا بد أن شيئا ما أصابهم. فهم يركزون على الجسد والخطب الدينية البلاغية وينسون الروح". إنه "انهيار سلفي".

المثـل الأعلى في نظـر الشيخ نوح هو الإمام الغزالي. لقد أشرق نور الله على الغزالي، واستطاع "التحديق إلى ما وراء الأفق ليرى الله ويعبده". وقال إن الإمام تخلى عن مهنته الأكاديميـة الناجحة طـوال عقد من السنين ليقـدم أفكارا متعمقـة وأجوبة مفحمة عن الأسئلة الروحيـة، وعند عودته بدأ تأليف الكتب التي غيرت مسار الفكر الإسلامي. يظل الغزالي، كما قال الشيخ، وثيق الصلة بالحاضر ويعلم المسلمين الكثير.

مـع أن الشيخ نوح يستخدم الكمبيوتر ويتلقى العديد مـن الاستفسارات عن الإسلام عـبر الإنترنت، إلا أنه ينتقد التقانة لأنها تسبب تشوش العقول "وتحجر القلوب". وهذا تشعب نظري تجريدي. ما يعرفه الأمريكيون لا يتجاوز "كيف"، لكن "ليس لديهم أي دليل علـى ماذا". الناس هـذه الأيام لا يدرسون موضوعـات الآداب الإنسانية ولا يكتسبون أي معرفـة بالحضارات الإنسانية. لذلك يمكنهم ركـوب الطائرات وصدمها بالمباني دون أن يتأثـروا، مثلما أكد. هنالك عطش للوعي الروحي لـدى البشر، ومعظم الناس لا يدركون هذه الحقيقة.

وعلـى المنوال نفسه، انتقد بعنـف الثقافة الأمريكية. لقد قتـل نصف مليون عراقي، لكن في نظر الأمريكيين ليس هذا سوى رقم إحصائي آخر على شاشة التلفزيون. الأطفال يكـبرون ويتربون على ألعـاب الفيديو، ثم يفترضون أن كل شيء هو لعبة، فلا تنمو لديهم أي مشاعر إنسانية. وعلى الرغم من التأثير الرهيب للمسكرات والمخدرات، يبدو أن الناس عاجـزون عن التخلص من إدمانهـم واتكالهم أو العثور على إجابات عـن أسئلة الحياة. ويعتقـد أن المجتمع العلمـاني لا يستطيع رفض هذه الملذات والأهـواء: "ما ليس له جوهر سـوف ينهـار ويتداعى بحكم طبيعته ذاتهـا. البشر بحاجة إلى أسلـوب حياتي مستدام.

العلمانيــة لا تقدم شيئا. أمريــكا خاضعة لهيمنة حكومة وصناعة متحالفتين تحالفا وثيقا في المصلحــة: الشيــخ دعا ذلك "جوهــر الفاشية. ثقافتي ترغب ببيــع الحروب". ولاحظ أن الجانــب الآخر من العولمة هو المادية تحديدا: "لمــاذا العولمة؟ إنها لبيع السلع والأشياء للناس، السيجار الضخم الذي تدخنه لا يفيد حين تحاول النجاة بجلدك. سوف تدرك أن مــا تأكلــه أو تلبسه أو تبتاعه لن يجعلك سعيدا. الشــيء ذاته يصح على الشغاف الروحي المحيط بالقلب. القليل يكفي". لكن الشيخ لا يبدو أنه مهتم كثيرا بالهجمات على الإسلام. لقــد وعدنــا الله بحماية الدين وحفظه. فعلى الرغم من كل شــيء، كان اجتياح المغول في القرن الثالث عشر أسوأ بكثير. وذكرني بأن الأمر انتهى باعتناق المغول الإسلام.

كان الشيــخ نــوح إنســان متواضــع وروحاني في إجاباته عــن أسئلتــي. في البداية بدا متحفظــا – مثــل جميع الأمريكيين أو الأوروبيين، وذلك علــى العكس من طريقة المسلمين في استقبــالي – لكنه بــدأ في نهاية المطاف بإظهار الود نحوي. وحــين سألت هل نستطيع تصويــر المقابلة لعرضها في سلسلة تلفزيونية، قال إنه لم يجر أي لقاء مع وسائل الإعلام لكنــه وافــق على تغيــير سياسته لأنه يظن أن مــن المفيد نقل رسالتــه إلى الآخرين. وبعد المقابلــة بدا حيويــا ومفعما بالنشاط ورغب بأن يأخذني لزيــارة الزاوية الجديدة (مكان الذكــر) التي يجلســ فيها هو وطلابه. وجدتها مكانا بسيطا، زاويــة صوفية تقليدية تتيح لمريديه فرصة التجمع وترتيل الأناشيد في مدح الله ونبيه. وحين ودعني، ترك لدي انطباع بأنــه رجل ثاقب البصيرة اكتسب درجة عالية مــن الوعي الروحي عبر الطريق الصوفي. فهــو، إذن، تجسيد حي لنموذج أجمر، حيث يجب علــى المتصوفة الروحانيين المنتمين له خوض المعركة ذاتها التي خسرها دارا.

السؤال المنطقي التالي الذي يجب طرحه هو: كيف تسير الأمور مع زعيم مسلم يمثل نمــوذج عليكره في عــالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر؟ سيــاتي أنور، المدير التنفيذي للمركــز الدولي للإسلام والتعددية في جاكرتا، يجد نفسه يخوض معركة خاسرة لترويج وتشجيع الحوار والفهم في بيئة تزداد عداء باطراد[64]. واشتكى لفريقنا أن الأمريكيين لا يقدرون أهمية الإسلام المعتدل في هذه البلاد. إذ لم يتلق أي دعم من الغرب. قال ساخطا: "كل مسلم إرهابي محتمل. إذ لا يأبه أحد لنا على ما يبدو". وأضاف إن الأمريكان حين لا

يدعمون شخصا مثله لا يدركون أنهم يساعدون الراديكاليين والمتطرفين في حقيقة الأمر. وهـؤلاء يقلدون ما يدعـوه أنور "إسلام العرب". حتى أسماء مثـل "حماس" و"الإخوان" و"حزب التحرير" تتبناها بعض الجماعات الإندونيسية من العالم العربي وتستخدمها، وهذه هي النسخ المحلية من نموذج ديوباند.

أعضـاء الفريـق، جوناثان هايـدن، وأكبر أحمد، وأمينة أحمـد، يلتقون بسيافي أنور، رئيـس المركز الدولي للإسلام والتعدديـة في أحد فنـادق جاكرتا بإندونيسيا. عبر أنور عن تعاسته نتيجة الافتقـار إلى دعم جهوده لتشجيع الحوار بين الأديان والتعددية في المجتمع. وكان الفندق قد تعرض للتفجير تعبيرا عن الاحتجاج على الغرب.

ووفقـا لأنور، عجز المسلمـون عن الاستجابة للعـالم بطريقة نقديـة وفكرية، ولذلك لجـؤوا إلى العدوان واللاعقلانية. أما استجابته فتعتمد على المنطق والفكر - إضافة إلى أنها إسلامية، كما يعتقد. ومع أنه كان عضوا في عدة لجان للعناية بالمساجد، إلا أن علماء الديـن يهاجمونه الآن لأنه يـروج الليبرالية ويمنعونه حتى من زيارة المساجد. بل أصدروا فتاوى ضـد التعددية والحوار بين الأديان، على أساس أن "التعددية معارضة للإسلام"، وبذلك أصبح هدفا رئيسا للإرهابيين لأنه يرأس المركز الذي يمثل التعددية.

لكـن أنـور أوضح بأسلـوب لا لبس فيه أنه ليـس تابعا أعمى للغـرب. وهو يرى العولمة بوصفها أمركة وعبر عن اشمئزازه من محطات التلفزة الغربية خصوصا الإباحية فيها. ويعتقـد أن هذا الفجور يغـذي المشاعر القوية المعادية لأمريـكا في مجتمعه. وعلى الرغم

مـن حديثه كله عـن الليبرالية، رجف من شـدة الغضب على بعض الموضوعات المتلفزة التـي تجرح مشاعره الإسلامية. فالمسلمـون كما لاحظ، يعتقدون أن الغرب صنع "نظرية المؤامرة" التـي تساوي بين الإسلام والإرهاب والعنف. هذا الإحباط الناجم عن التشويه الخطـير وسوء التمثيـل الفاحش، دفع حتى المسلمين المعتدلـين والمنطقيين إلى استخدام خطـاب التطرف. وتفاقم الغضب على الغرب ليتحـول إلى عاطفة جياشة تدفع المسلمين إلى العمليـات الانتحارية. فلأول مرة، كما أشار، تنفذ في بالي وجاكرتا (في الفندق ذاته الذي كنا نلتقي فيه) عمليات انتحارية.

أيـدت هـذه الملاحظـات نتائج توصلـت إليهـا دراسة أجريـت منذ مـدة قريبة على السلوكيـات والمواقف الدينيـة المتطرفة في إندونيسيا[65]. اعتمـد التحقيق الاستقصائي علـى مقابـلات مع رجال ونساء في المناطـق الريفية والحضرية أجريـت وجها لوجه على المستـوى الوطني. النتيجة لا يمكـن تجاهلها. 50% من المبحوثين رغبوا بتطبيق الشريعة وأيـدوا تفجيرات بـالي بوصفها أعمـالا جهادية حقيقيـة، سوف تقوي وتثبـت الإسلام. والأصـوات ذاتها عارضـت وصول المرأة إلى منصب الرئاسـة، وأصرت على وجوب قطع يـد السارق، ورجم الزاني والزانية حتى المـوت، والسماح بتعدد الزوجات، وأن يكون حظ الذكر من الورث مثل حظ الأنثيين.

تكلـم أنـور منذرا مـن "الأسلمة الزاحفـة" في كل مكان حوله، ومحـذرا من اختراق تفكـير أتباع ديوبانـد بالتدريج النظام القانـوني العلماني في إندونيسيـا والمجتمع الأكثر تسامحـا وتعددية وقبولا بالآخر. فعلى الرغم مـن كل شيء، هذه هي جزيرة كاليدجاكا، الـولي الصوفي. غمره اليأس والغضب وحتى العجـز أمام هذا الاحتمال، حيث تحول إلى زعيـم يعبر، وإن دون قوة تسنده، عن نموذج عليكره. والنموذجانعليكره وأجمريتعرضان للهجوم في إندونيسيا ويواجهان خطر التراجع والانحسار.

لسوء الحظ، لا يعد أنور المثال الوحيد على نموذج عليكره المعزول والمحاصر. فنظيره في كوالالمبور، إسماعيل نور، رئيس "مركز الزعامة الغيرية"، اشتكى الوضع ذاته والورطة الشخصية نفسها. كلا الرجلين في منتصف العمر، ويلبس الحلة الأوروبية ويضع النظارة، ويتمتع بالذكاء والقدرة على التعبير والشعور الوطني، إضافة إلى التمسك بأهداب الدين.

ومـع إيمانه الصادق بالإســلام، يؤمن بالاجتهـاد، وإحداث تغيـير في التقاليد والعادات والـتراث الإسلامي. ويتحدث عـن المستويات المرتفعة من العـداء لأمريكا نتيجة أحداث السنوات القليلة الماضية. ويعتقد أن وسائل الإعلام الغربية المعادية للإسلام توجد الدعم والتأييـد للمتطرفين. وكلاهما اختار النبي مثلا أعلى، تبعه عمر بن الخطاب. وأشار إلى أخطار التشدد والتطرف والتزمت في المجتمعات، حيث "لا توجد رحمة ولا تراحم في هذه الرؤية للإسلام، التي تقوم على الغضب واليأس والعنف".

يـدرك الزعماء المسلمون علـى كل مستوى من مستويات المجتمـع حجم الأزمة. عبد الرحمـن وحيـد، أول رئيس منتخب في إندونيسيا، دعـا في صيف عام 2006 إلى "عملية إحيـاء روحية داخل الإسلام ذاته". ونتيجة قلقـه وخشيته من نفوذ وتأثير "المتطرفين"، اعتقد أن "أشد الطرق فاعلية لمغالبة التطرف الإسلامي هي شرح معنى الإسلام وحقيقته الأصيلـة". وشعـر هـؤلاء الزعماء بالمـرارة نتيجة مـا يعدونه لا مبالاة الغـرب بمحنتهم وبلواهـم. فمن المحزن أن الغـرب فشل في فهم الأهمية الاستراتيجيـة لأشخاص مثلهم، لذلـك لم يظهر أي اهتمام بمساعدتهم. أما ما أخفق هؤلاء الزعماء المسلمون في تقديره ومعرفتـه فهو أن السياسيين وراسمـي السياسة والمعلقين الغربيـين، لأسباب أيديولوجية واستراتيجيـة خاصة بهـم (أوضحها هـذا الكتاب) يسلطـون بقعة الضـوء على نموذج ديوبانـد وكأنه الممثـل الوحيد للإسلام. تعتقـد أمينة هوتي، الناشطـة في ترويج الحوار والفهـم المتبادل بين الإسلام والغـرب، أن النزعة إلى التركيز على "المتطرفين" وتجاهل "المعتدلين" لا يساعد قضية الفهم المتبادل:

يمثـل تراجـع وانحسار تأثير المعتدلـين وتنامي دور ونفوذ المتطرفـين تطورا محفوفا بالخطـر وتحديا قويا لا يقتصـران على جانب المسلمين وحدهم. فالناس العاديون الذين تحدثت معهم في الغرب يتبنون العديد من المدركات السلبية والخاطئة غالبا عن الإسلام والمسلمين والمرأة المسلمة. فالعربي يعني المسلم والمسلم يعني العربي. لكن أسقف القدس الحـالي أشار في خطبة مثيرة في كيمبردج إلى أنه عربي وفلسطيني وإسرائيلي ومسيحي في آن معا، وأن المسيح لم يكن رجلا وسيما أشقر الشعر أزرق العينين كنجوم هوليود، لكنه ينتمي في أصله إلى الشرق الأوسط.

على نحو مشابه، أشار الدكتور أنور في إندونيسيا إلى أن المسلمين الإندونيسيين مجتمع متنوع. وفي الحقيقة، اتفق معه في الرأي: الإسلام دين استيعابي يقبل الآخر، ويتقاسم العديد من المعتقدات المشتركة مع المسيحية واليهودية، وغيرهما من الديانات التوحيدية؛ الإسلام منح الرجال والنساء حقوق الإنسان منذ القرن السابع الميلادي؛ الحياة مقدسة في الإسلام والانتحار حرام وكذلك القتل؛ المسلمون ليسوا عرقا واحدا بل تتعدد ألوانهم ووجوههم وسلوكهم؛ الإسلام منح المرأة حقوقا عديدة، بل أكثر من الرجل أحيانا[66].

لكن النتائج الميدانية التي توصلنا إليها تؤكد المبالغة في تقدير أهمية الشخصيات التي تمثل نموذج ديوباند بسبب الأحداث الراهنة ومغالاة وسائل الإعلام الغربية في هذا السياق، وذلك على الرغم من التعاطف الواسع معها في العالم الإسلامي. جوناثان هايدن، الذي رتب لي اللقاءين مع أنور ونور، يؤكد هذا الرأي أيضا:

خلال اللقاء مع الدكتور أنور في فندق بجاكرتا، بدا توتره واضحا للعيان. فهو يخاطر بحياته في سبيل الإسلام المعتدل العصري. لقد صدرت الفتاوى بتحليل دم أمثاله. ولذلك كان يلتفت بقلق يمنة ويسرة وعرقه صبيب، ويتكلم بصوت منخفض. الفندق تعرض لعملية تفجير إرهابية عام 2003، ومع أن إجراءات الأمن مشددة، إلا أن التوتر ظهر حتى في الجو. اضطهد أنور وانتقد بحدة بسبب دفاعه عن التعددية، التي تمثل واحدا من أهم مقومات وملامح الديمقراطية الحديثة. إندونيسيا أكبر بلد إسلامي في العالم، وسمعنا الكثيرين يصفونها أمامنا بـ"المارد النائم". وحين نأخذ بالاعتبار حجم المال الذي تصرفه الولايات المتحدة على "غرس الديمقراطية"، فإن من المحبط لي رؤية أشخاص مثل الدكتور أنور يكافحون ويعانون لترويج المبادئ الأساسية للديمقراطية في بلد يحظى بمثل هذه الأهمية ويتعرض لهذا القدر من التجاهل. وهو، مثل الكثيرين المسلمين في إندونيسيا الذين يدافعون عن المساواة في الحقوق والتعددية والليبرالية، صديق للولايات المتحدة ويفعل الكثير لمحاربة الإرهاب كالجنود في العراق تماما، لكنه ترك وحيدا في الخندق ليواجه تهديدات رجال الدين المحافظين.

إندونيسيا بالفعل مارد إسلامي نائم (عدد سكانها يناهز 250 مليونا) وما يحدث هناك سوف يؤثر في المنطقة برمتها. لذلك فإن النضال الذي يخوضه نور وأنور أمر مهم.

وفي حين أنهما يقاتلان باسم نموذج عليكره وإرادته وجوهره في المجتمع، إلا أن الكثيرين يرون في نسختهما عن الإسلام تشويهات وتنازلات وتسويات. وسوف يقاوم المسلمون على الدوام فرض إطار إيديولوجي ملون بالأفكار والمفاهيم الغربية، مثل "التعددية"، التي يروجها الغرب برأي العديد منهم. وبعد أن فوجئت بالاستقبال الحار الذي تلقيته في العالم الإسلامي، أدركت لماذا كانت استجابة المسلمين على هذه الدرجة من الإيجابية، لكن اتخذوا مواقف عدائية تجاه نور وأنور رغم ما يتمتع به كل منهما من صفات وخصال تدفع المرء للتعاطف معه. ففي حين اعترفت بوجود أزمة في الإسلام، إلا أنني لم أستخدم أبدا تعابير جديدة أو مستلهمة من الغرب، مثل "إصلاح الإسلام" أو "الإسلام التقدمي" عند التصدي للقضايا الأساسية. وأعتقد أن من المهم للثقافة أن تعمل ضمن إطار معتقداتها وتقاليدها بقدر الإمكان. ولأن هذين الزعيمين متهمان بالهجوم على أسس وأركان الإسلام ذاتها في سعيهما لإحياء الدين، فقد تعرضا للإدانة والتجريم على الرغم من أوراقهما الثبوتية كمسلمين صالحين. وتلك عبرة يجب أن يتعلمها كل مسلم وغير مسلم يريد إحداث تغيير إيجابي وإجراء حوار حقيقي في المجتمع.

معركتي في سبيل تعريف الإسلام

ألهمني محمد علي جناح التزام نموذج عليكره، ثم تعزز خلال سنوات عملي فيما كان يسمى الخدمة المدنية في باكستان، التي تضم نخبة كادر الخدمات العليا المركزية. كان محمد علي جناح يجسد في القول والفعل نظاما ديمقراطيا حقيقيا، واحتراما للقانون، وحقوق الآخرين، وحماية المستضعفين والمضطهدين[67]. آمن جناح بالعمل الجاد الدؤوب والكفاءة وأدان المحسوبية والفساد. وجدت في رؤيته مجتمعا مسلما مثاليا مؤسسا على المقومات المركزية للإسلام: العدل والإحسان والعلم. الناس العاديون الذين يعيشون في المناطق الريفية والقبلية في باكستان ألهموني بإيمانهم واستقامتهم وحسن وفادتهم. عرفت أنني أستطيع مساعدتهم بالطريقة التي كان محمد علي جناح سيرغبها: بتوفير سلطة حكومية مسؤولة، وعدالة تعطي الحق للمظلوم بسرعة، وحرية وسهولة الوصول إلى المسؤولين.

الخدمة المدنية في باكستان، التي امتدحها الآباء المؤسسون بوصفها "إطارا فولاذيا"، تحدرت مباشرة من الخدمة المدنية الهندية، التي أسستها الإمبراطورية

البريطانيـة وصممتهـا خصيصـى للهند. والمعجبون بهـا يتطلعون إليهـا برهبة، والكتب التـي ألفت عنهـا قارنتها بـ"أوصياء" أفلاطون والطبقة العليـا من البراهما "المولودة في السمـاء"[68]. واستطاع موظفوها، الذين يختارون بواسطة امتحانات تنافسية، ويكونون غالبـا من خريجي اكسفورد وكيمبردج، ضمـان الاستقرار في الأوقات المتغيرة والحيادية والنزاهـة في السياسـة المحلية. كانت خدمـة مدنية ممركزة وقوية تجنـد موظفيها على أساس امتحانات مفتوحة، وتمثـل واجبها الأساسي في ضمان القانـون والنظام، فكانت نعمـة مباركـة في مجتمعات خضعت للأفـكار والولاءات القبلية والدينيـة. ما زالت قصة مدير المنطقة المسؤول تفتن الكتاب[69]. لكن في نظر منتقدي الخدمة المدنية الهندية، لم تكن هندية فعلا ونادرا ما كانت مدنية، ويصعب اعتبارها خدمة.

كانـت الخدمة المدنيـة في باكستان نظاما ميداني المرتكز، رغـم مكانتها الاجتماعية الرفيعـة. فحـين يعين الموظف كمساعـد للمأمور أولا، ويكون في الخامسـة والعشرين من العمـر عـادة، توكل إليه مسؤوليـة إدارة منطقة فرعية تضم عددا يـراوح بين عدة مئات من الآلاف وعدة ملايين من السكان. وبمقدوره تنفيذ برامج وخطط تنموية وبناء مدارس جديـدة، لكن واجبه الأساسي يقتصر على حماية القانون والمحافظة على النظام والعمل كمسـؤول عن عائدات الحكومـة. وحين لا يكون رئيسه المباشر في زيـارة لمنطقته، يصبح السيد المطاع من جميع سكانها. رجال القبائل، وهم أكثر فطنة من أهل الحضر، يلقبون رئيـس الإدارة بـ"الباشا" (على وجه العموم، يسمـى المفوض السياسي في منطقة جنوب وزيرستان "باشا وزيرستان")[70].

ثمـة درس مبكر تعلمته هو أن القول السائد عـن فساد وإفساد السلطة المطلقة يصح تماما على النخبة الحاكمة في باكستان. وحين أصبحت مدير ناحية في الستينيات (وكنت شابـا آنـذاك)، حملت معي رؤية محمد علي جناح المثالية، آمـلا أن أحدث فرقا في حياة الناس المسؤول عنهم. لكنني أدركت أيضا أن الفساد ينخر ببطء رؤيته عن باكستان، وأن نموذج عليكره ذاته يواجه خطر التشويه والتحريف. أدركت سلسلة من الأنظمة المتعاقبة أن بنيـة الخدمة المدنية في باكستان تشكل عقبـة كأداء أمام ضمان السلطة المطلقة التي ترغب فيها، لأنها مثلت مفهوما محددا عن القانون والنظام، ونجحت في تفكيكها في نهاية

المطـاف. ولم تظهـر صرخات احتجـاج علنية لأن الخدمة بدأت تكتسـب على مر السنين سمعـة الإدارة المتغطرسة بل حتى الفاسدة. لكـن البديل الذي حل محلها لم يكن أفضل. واليـوم، تتنافس العواطف والأهواء والـولاءات الطائفية والمذهبية والإثنية والإيديولوجية على ملء الفراغ الذي خلفه إلغاؤها في المجتمع، وتتحول بسهولة إلى العنف. ومن الواضح أن بديل الإدارة العسكرية الذي حل محل الخدمة المدنية قد فشل في باكستان. وهذه عبرة يحتاج إلى أن يتذكرها كل من يهتم بتصميم مستقبل المجتمعات الإسلامية، في باكستان أو العراق أو أفغانستان.

واجهـت أول أزمـة كبرى بعد بضعة شهور من تعييني مديـرا في اوكارا ضمن منطقة ساهيوال الإدارية إلى الجنوب من لاهور. إذ عين زميل لي تدرب في الأكاديمية في المنطقة ذاتهـا، وكان رئيسنا، معـاون المدير المفوض، وأحد أقوى الموظفـين المسؤولين في الخدمة المدنية، قد رتب أمر إقامة حفل استقبال في منزله. حضر أفراد النخبة في المقاطعة كلهم – أعضـاء البرلمان، ورؤساء الأقسام، وضباط الشرطة، والأثرياء والأعيان والشخصيات المهمـة والنافذة. فصل الرجال عن النساء، وبدؤوا بتنـاول الشراب. جلست أنا وزميلي، وكنـا أصغر الضيوف سنا، في ركن قصي وحاولنا بقدر المستطاع عدم لفت الأنظار، حين اقـترب منا نائـب المفوض، وعليه أمارات السكـر، وسألنا لماذا لا نشـرب. ثم ألقى علينا محاضـرة عن مزايا الشراب، الذي يعد برأيه ضـرورة لا غنى عنها للموظفين الميدانيين الناجحين وطلب من النادل أن يحضر لنا كأسين وتركنا وذهب. ونظرا لأننا لم نذق طعم الخمر من قبل، قررنا عدم التخلي عن مبادئنا. فقد تعلمت من والدي أن أرفض بأسلوب مهذب في مثل هذه الحالات، لكن دون أن أنتقد الآخرين الذين يختارون سبيلا آخر.

عـاد نائـب المدير المفوض بعد بضـع دقائق ومعـه عدد من كبـار الموظفـين وبدؤوا يضغطـون علينا لتناول الشراب. صحيح أن أسلوبهـم كان دمثا ولطيفا لكن فيه نوعا من التهديـد والترهيب أيضـا. بعضهم كان يتمايـل متأرجحا من شدة السكـر. فجأة أذعن صديقي للضغوط ورشف من كأسه. والآن تحول الانتباه إلي، في حين انضم آخرون لحثي علـى الشرب. تشبثت بالرفض وأعددت نفسـي للنقل المهين من المنطقة في صبيحة اليوم التـالي، وتلك بداية غير موفقة لمهنتي كمدير ناحيـة. عند هذه النقطة، أعلن أحدهم أن

العشاء جاهز، وبدأ المدعون بالانتقال إلى غرفة الطعام. ولأنه المضيف، تريث نائب المدير المفوض منتظـرا دخول جميع الضيوف. وتبعناهم أنا وزميلـي، ملتزمين آداب التراتبية. استغـل نائب المفوض فرصة ابتعاد آخر ضيـف وهمس إلي وقد صحا مـن سكره تماما: "كنت أختبرك. حسنا فعلت، يا أكبر. أنا فخور بك. لسوف تحظى بدعمي الكامل لأداء مهمتك". ثم وجه نظرة مذلة ومعبرة إلى زميلي قبل أن ندخل معا غرفة الطعام.

لم أكـن حينذاك أتجاوز الخامسة والعشرين، ومع ذلـك تعرفت الصدام المحير بين النماذج المختلفة في المجتمع المسلم، ووجب علي تلمس الطريق عبرها للحفاظ على مواقفي ووجهتـي الأخلاقية. في حفل العشـاء ذاك، سيحافظ أتباع نموذج أجمر على استقامتهم الإسلاميـة بعدم تناول المسكرات لكن مع تبني سياسة "عش ودع الآخرين يعيشون" تجاه الذين يعدون أنفسهم مسلمين "عصرانيين" من نموذج عليكره المشوه والمحرف. أما أولئك الذين يؤمنون بنموذج ديوباند فلن يدعوا أصلا إلى حفل كهذا - لنتذكر أن الحادثة تعود إلى ستينيـات القـرن العشرين، حين كان نمـوذج عليكره يهيمن علـى باكستان، ونموذج ديوباند مهمشاوعلى أية حال كانوا سيدينون الحفل بوصفه انتهاكا لمبادئ الإسلام.

الأيام الذهبية الخوالي للخدمة المدنية ونموذج عليكره ولت الآن وأصبحت جزءا من الماضـي. لكن حتى أنا، الذي عشـت في مجتمع إسلامي، لم أستطع التنبؤ بسرعة وطبيعة التغيير الذي بدأ آنذاك. فانطلاقا من أواخر الثمانينيات، كان علي أن أرى، من منظوري كزميـل في جامعة كيمبردج، التأثيرات الكبرى للعولمـة على العالم الإسلامي والتهديدات التي تفرضها على مجتمعي. عرفت أن نموذج عليكره معرض للخطر، لكن لم أدرك حجم التغيـير الآتي. قررت آنذاك الانضمام إلى المعمعة ودعـم وترويج نموذج عليكره بقدر ما أستطيع. وعقدت العزم على إطلاق مشروع طموح لإحياء النموذج عبر صنع أفلام وتأليف كتـب عن محمد علي جناح، تجسيده المنصور والمثـالي. ودعوت المشروع المؤلف من أربعة أجـزاء "رباعيـة جناح". استكملته في نهاية المطاف مع أنـه تطلب زهاء عقد من الزمن. وخلال العملية تعرضت للدمار تقريبا - جسديا ووجدانيا وماليا. وكان أشد ما أحبطتني خيبـة الأمل في السلوك، ومنه انتهاك الالتزامات والعقود المكتوبة من أولئك الذين عبروا بثقافتهـم الغربية ومظهرهم وكلامهم عن نموذج عليكـره وحسبت أنهم سيفهمون مدى وعمق ما كنت أحاول فعله[71].

مـن الواضح أن المشروع عُد محاولة لإحياء روح محمد علي جناح التي أصابها الفتور والتراخـي وأخلاق نمـوذج عليكره. وحين كنت أصور الفيلـم في باكستان، تلقيت تحذيرا من مغبة تقديم جناح كـ"ليبرالي"، أو حتى التلميح إلى أنه رزق بابنة، لأنه ارتكب خطيئة في نظـر المتشدديـن والمتزمتين بزواجه من امـرأة غير مسلمة. وطُلب منـي تغيير الممثل كريستوفـر لي الذي يقوم بدور محمد علي جناح لأنه لعـب من قبل دور دراكولا، وشاشي كابـور لأنه هندوسي وهندي. وحـين رفضت، أثرت عاصفة من الغضب من عدد كبير من الأشخاص لم يكن يخطـر ببالي. صحيح أنني توقعت بعض المعارضة لكن لم أتصور أن تشـن علي حملة تشويه شاملـة عبر الصحف، والمظاهرات، والدعـاوى القضائية، وحتى التهديـدات بالقتل. تقارير الصحف أشارت بأسلـوب هستيري إلى الكشف عن "مؤامرة يهودية" و"مؤامرة هندوسية" تستهدفان الإسلام عبر الفيلم. وعند عودتي إلى كيمبردج، شعـرت بتشوش وارتبـاك ولم أفهم ما حدث وكيف أفسره. لكنني أدركت أنني في مواجهة تيارات عميقة في المجتمع.

وفي حـين تلقيت تأييدا قويـا ودعما هائلا من أولئك الذين آمنـوا أنني أكافح لإحياء ذكرى محمد علي جناح، كنت أيضا رمزا في نظرهم لهذا الإحياء. عمر بكري، الذي حاز شهـرة عالمية بعد الحادي عشر من سبتمبر حين زعم أنه الناطق الرسمي باسم بن لادن في أوروبا، هاجمني بوصفي "العم توم"، واتهمني بالانسحار والافتتان بالحضارة الغربية والحرص الشديـد على محـاورة اليهود والنصـارى[72]. في الوقت ذاتـه تقريبا، هاجم بأسلـوب عنيف ولاذع محمد علي جناح في مجلته "الخلافة"، واتهمه بالذنوب ذاتها (في عـدد كانـون الأول / ديسمبر 1996). أما عنوان المقـال فلخص نبرته: "افتضاح محمد علـي جناح! جناح يتحـدى الله". وردد هجوم بكري منتقدو جنـاح المتدينون الذين دعوه بـ"الكافر العظيـم". أنكرت اتهامات بكري، فهو يمثل ما يعده الكثير من المسلمين "الفئة المتطرفة" وحتـى "الضالة" في الإسلام. وكان ذلك فشلا من جانبي في قراءة التغييرات العميقة والجوهرية التي تحدث في مجتمعي.

كان بمقـدوري تفهم حقـد أولئك الذين لم يريدوا رؤيتي أنجح بسبب الغيرة المعروفة في المجتمـع المسلم، لكنني لم أتمكن من تفسير العداء المتأصل أو حتى تناقض وازدواجية

العديـد غيرهم إلى أن قمت برحلاتي الأخـيرة في العالم الإسلامي. وما شهدته فعلا هو انحطـاط درامي أصاب نموذج عليكره. لقد نشأت وأنا أسمع أبوي وأصدقائهما يتحدثون عـن محمد علـي جناح كأنما هـو موسى، زعيم سـوف يخوضون البحر خلفـه لو أمرهم بذلـك. فعلى الرغم من كل شـيء، استطاع وحده تقريبا إقامة دولـة للمسلمين. ولم أكن أتخيـل ألا يتبـع باكستـاني الرجل الذي منحه الحريـة وأعطاه دولة. لذلـك حين سمعت الطـلاب الباكستانيين في إحدى مدارس النخبة العصرية في كراتشـي، المدرسة الأولى التـي التحقت بهـا، يمجدون فضائل بن لادن خلال رحلتنا عـام 2006، واجهت مباشرة حقيقة الانهيار الدرامي المؤثر لرؤية محمد علي جناح التحديثية لباكستان.

كان نمـوذج عليكـره الذي جسـده محمد علي جنـاح يعني التصـدي لقضايا تطلبت إصلاحـات اجتماعية تشمل الاقتصاد والسياسة، وتمثيـل المسلمين في البرلمان، والكفاح للحفاظ على أمن وسلامة وأمان المسلمين في أوضاع حياتية حقيقية. هذا الكفاح النضالي يتطلـب تضحيات صعبة وتفكيرا نقديا على صعيد حياتنا الشخصية. إذ لا نستطيع قبول أن يشتـت انتباهنـا الغضب أو الطمع أو الكسل أو الجهـل عن مسعى تحقيق هذا الهداف الأكـبر. في الإسلام الذي يفسره عمرو خالد وشوكت عزيز - أقرب التفسيرات المعاصرة إلى نمـوذج عليكـره - رأيت هذه القضايـا المهمة تهمش لتخلي السبيـل لتوكيد أكبر على الكسـب الشخصـي. وأشعر أن هذا التفسير لا يتحدى أحدا علـى المستوى الروحي، لكنه يوفر إحساسا زائفا بالأمان وشعورا مؤقتا وزائلا بالسعادة والرخاء.

منذ استكمال "رباعية جناح" في عامي 1997. 1998، تفاقم الاستقطاب والعنف في العـالم، وحثت العولمة الخطى. في رحلة عام 2006، توضح لي أن العداء لمشروعي المتعلق بمحمـد علي جناح ناجم عن التغييرات الاجتماعية. فقـد أصبح نموذج عليكره التقدمي والفاعـل ضعيفا ويواجـه خطر اكتساح نمـوذج ديوباند الذي لم يبد قـط أي تعاطف مع محمـد علي جناح. شعرت كأنني محارب في خضـم معركة يعرف أن فرص كسبها قليلة، لكنه لم يدرك قط أن معسكره خسر الحرب.